محمد أديب الحميد

شمس

"رواية"

شمس

رواية

محمد أديب الحميد

2019

تنسيق
محمد دياب

تصميم الغلاف
محمود الخلف

شمس

حقوق النشر محفوظة للكاتب
صادرة عن اتحاد الكتّاب العرب
برقم 1142 و تاريخ 2019/12/10

الإهداء

قالَ لي أبي حين دخلتُ كلية الطب :
الآن أضمن أن أرى اسمي على إحدى لافتات الشوارع ..
ولأنني أبيتُ أن يكونَ على لافتةٍ ولا يكون على صفحةِ كتاب ..
أهدي لكَ شمس .. روايتي الأولى
الموجه التربوي والمربي الفاضل : الأستاذ حسين الحميد

حينَ دخلت كلية الطب ، كان الأمرُ أشبه بانتصارٍ ناقص ، أو لنقل بأنه كان نجاحاً كاملاً ، ولكنني كنتُ أشعر بنقصه لكوني كنتُ وحيداً في ذلك المكان .

لم يكن أحدٌ من أصدقائي في الثانوية قد دخل كليةَ الطِّب معي ، الأمرُ الذي أصابني بالوحدة . وخاصةً أنّي كنتُ أقضي معظم وقتي في العمل بدل أن أمضيه في الكلية بحثاً عن رفاقٍ جُدد .

وكأنني استكنتُ للأمر ، فلا بأسَ ألّا يكونَ لأحدهم أصدقاء.

لذلك حينَ التقيتُ بكِ أمامَ مخبر التشريح لم أحفل بكِ كثيراً، وجدتكِ تبحثينَ عن أوراقٍ كنتُ أملكها ، فوعدتك أن أحضرها لكِ في اليوم التالي .

وعلى هذا الأساس أخذتُ منكِ موعداً في العاشرةِ من صباحِ ذلك اليوم .

أذكرُ تماماً تفاصيلَ ذلك الموعد الأول الذي جمعني بك يا شمس ، كانت الساعة تقارب العاشرة إلا ربع صباحاً . وكنت قد وصلت قبلك إلى ذلك المكان ، أخذت فنجانين من

القهوة لكي أزيل عن عينيَّ غشاءً من النعس أرخى سدوله بعد ليلٍ طويل من العمل .

لم أكن أدري حينها بأنَّ اللون البني في عينيكِ سيكون له أثرٌ منبه في جسدي أكثر من ألف جرعة أدرينالين ، وأكثر من بستان من أشجار البن .

وأن حضوركِ الهادئ سيطفئ كل نيران النعسِ التي تأكل جوفي .

وصلتِ على الموعدِ تماماً في التاسعة وخمسين دقيقة . جميلةً كما تشتهين ، و حازمةً كما ينبغي . خطواتك تملك من الأنوثةِ ما يجعلك ملكةَ جمال ، وتحوي من الحياء ما يجعلك تشبهين ابنة شعيب في حيائها .

لباسك المحتشم زادك أناقةً أكثر من كل صيحات الموضة التي أراها في كل مكان .

ربما تقولين لي يا شمس أراك تذكر كل التفاصيل بدقة حتى عدد الدقائق وساعة الوصول !

وأقول لكِ بأن لكلِّ شخص تاريخ ميلادٍ يكتب في هويته ويظل يحفظه دائماً ، ولكن تاريخ ميلادي مختلفٌ يا شمس،

تاريخ ميلادي منقوشٌ في قلبي وليس في الهوية ، ميلادي الحقيقي بدأ منذ اللحظةِ التي حطت عيناي عليكِ وأنت تدخلين من باب مقهى الجامعة ، وكأني كنت قد ولدت حينها!

وكأنَّ كلَّ عمري الذي مضى قبل تلك اللحظةِ ما هو إلا استعدادٌ لهذا الموقف الذي خطَّ في قلبي ذكرى لن تنسى ولن تمحى .

- صباح الخير، أتمنى ألَّا أكون قد تأخرت .
- صباح النور، لا أبداً ، وصلتِ على الموعد تماماً .
- أتمنى أن تكون قد أحضرت لي تلك الاوراق .
- بالطبع ، ولكني أود أن تشاركيني القهوة التي أحضرتها لكِ مسبقاً كي لا تتأخري .
- حسناً ، شكراً لك .

وبدأت ترتشفين أول رشفةٍ من فنجانِ القهوة ، وبدأت أنا بدوري أرتشف أول جرعةٍ من الحب ، بدأت تتسلل إلى قلبي .

كنت كلما أطلتُ النظرَ في عينيكِ البنيةِ أكثر ، أشعر وكأني أغرقُ رويداً رويداً ، والغريب أني كنت أشعر بلذةِ الغرق ولم أفكر حتى بطلب النجاة .

تماماً كالإنسان النائم الذي يدخلُ بحلمٍ جميلٍ ، ولا يريد أن يستيقظ منه .

نظراتكِ المفعمةُ بالأمل كانت بمثابةِ النورِ الذي يشق طريقهُ في ظلامِ قلبي ، وكنتُ أنا كالأعمى الذي بدأ يعود إليه بصره رويداً رويداً !.

- أنا بلال ، هل يمكنني أن أعرف اسمك ؟
- أنا شمس .
- اسمٌ جميلٌ يليقُ بفتاةٍ مثلك .
- شكراً لكِ على القهوةِ والأوراق ، يتوجب علي المغادرة.

قلتيها ونيران الخجل تستعر في خديك ،وعيناك تلامسان الأرض حياءً .

ونارُ الهوى بدأت تضربُ قلبي بلا هوادة .

- لا شكرَ على واجب ، إلى اللقاء .

حملتِ أوراقكِ وغادرت المقهى ، وبقيتُ خلفك كالمدينة الخارجة من إعصارٍ ضربها للتو .

شعرتُ للحظةٍ بأن قلبي قد خرج من صدري وغادر معك!

شعورٌ غريبٌ بدأ يتسللُ إلى جوفي لم أعهدهُ من قبل .

لذةٌ ممزوجةٌ بطعم الخوف والارتياب ، ارتباكٌ ممزوجٌ بطعم الإقدام على أمرٍ لم أخض فيه من قبل .

كنتُ من قبل أؤمنُ بأنَّ الحب ما هو إلا وجه أمي ، ودعاء أمي ، وضحكتها التي كانت تنسيني عناء يوم كامل من الإرهاقِ والتعب ، ومشقةَ دراسةٍ تزيد على قلبي هموماً تراكمت بحيث لم يبقى لغيرها متسع .

لم أكن أصدق ذلك الحب الموجود في الروايات ، ولا حتى كلمات الشعراء المتأنقةِ التي تصورُ الحياةَ عبارة عن حبٍ وعشقٍ فقط ، وتنسى ما فيها من المشاقِ والمتاعب !.

كلُّ تلكَ الأفكار التي بنيتها ، نسفها لقاءٌ واحدٌ معكِ يا شمس!

وكل تلك الحصون التي شيدتها ، لتقيني من هجماتِ الحبِ المباغتة ، اخترقتها عيناكِ الخجولةُ بلمح البصر !.

لقد كان حضوركِ ، الريشة التي قصمت جبال الحذرِ في قلبي !.

عدتُ يومها إلى البيت وأنا أُدركُ بأنني فقدتُ قطعةً من قلبي بقيت معكِ ، وفي ذات الوقت ، أدركتُ أيضاً بأنني كسبتُ شيئاً ثميناً ، كسبتُ أمراً أضفى إلى حياتي طعماً أخر .

حصلتُ بدون قصدٍ مني على النورِ الذي أشرق فجأةً على حياتي ، وعلى الأوكسجين الذي كنتُ أفتقده في الهواء الذي أتنفسه ، حصلتُ ببساطةٍ على حبي الأول .

وصلتُ إلى المنزل وأنا غير مدركٍ لأي طريقٍ سلكت ، وكم من الوقتِ مشيت ، وقد كان جُلّ تفكيري منشغلٌ بكِ يا شمس .

طرقتُ البابَ مع أنني كنتُ أملكُ مفتاحاً في جيبي دائماً ، فتحت أمي الباب وتحدثت بعدةِ كلمات لم أُحاول أن أفهمها.

لا أذكرُ إلا أنني ارتميتُ على يدها أُقبلها وأنا أرقص فرحاً، وأمي تقفُ مدهوشةً لما يحصلُ أمامها ، ثم دخلتُ غرفتي

وارتميتُ على سريري أغني كمخمورٍ خرج من حانةٍ للتو!.

نعم لقد كنتُ مخموراً يا شمس ، كنت مخموراً بحبك ، بعينيكِ اللتينِ اخترقتا قلبي كسهمٍ نافذٍ لم يخطئ راميه الهدف أبداً .

لم استطع النومَ حينها ، مع أنني كنتُ مضطراً لذلك بسبب عملي الليلي في أحد المطاعم . لقد كنتُ أفكرُ كيف بإمكاني أن ألتقي بكِ مجدداً .

بالرغم بأننا كنا سوياً في نفس السنةِ الدراسية ، إلا أنني لم أشأ أن أفرض نفسي عليكِ ، كنتُ أُريدُ أن أخلق لقاءً من عدم بدونِ أن أشعركِ بأني أُريدُ ذلك .

لم أشعر حينها كيف دخلتُ بغيبوبةِ نومٍ عميق لم أخرج منها إلا على صوت أمي ينادي :

- هيا يا بلال ، لقد تأخرتَ على عملك .

نهضتُ واقفاً وأنا أنظر إلى الساعةِ التي كانت تقاربُ الثالثةَ والنصف ، ولم يتبقى سوى نصف ساعة على موعدِ عملي في مطعمِ " الشرق الحديث " ، حيثُ كنتُ أعملُ نادلاً هناك منذُ عامين تقريباً .

بالكادِ استطعتُ أن اتناولَ القليلَ من الطعام الذي أعدته أُمي لي وأنا مشوش الذهن تماماً وكأنَّ عاصفةً قد هبت برأسي.

- ما بكَ يا بلال ، منذ أن دخلت المنزلَ وأنت لست على ما يرام ؟!
- لا شيء يا أمي أنا بأفضل حالٍ والحمد لله .
- لا تنسى أن تأخذ مظلتكَ ، فالأجواءُ ممطرةٌ في الخارجِ يا بني .
- لا عليكِ يا أماه ، سآخذها معي .

قبلتُ يدَ أمي وحملتُ مظلتي وخرجتُ مسرعاً تحت قطراتِ المطر التي بدأت لتوها بالهطول .

وصلتُ إلى المطعمِ متأخراً بعض الوقت ، استبدلتُ مسرعاً ملابسي وارتديتُ ثياب العمل الأنيقة ، ونزلتُ مسرعاً إلى الصالةِ الرئيسية ، حيثُ كنتُ أعملُ على إيصال الوجبات إلى الزبائن ثم إعادة الصحون إلى المطبخ ، وهذا كان عملي على مدارِ العمل الذي يمتدُ أحياناً إلى الثانيةِ أو الثالثةِ بعد منتصف الليل .

لقد كانَ هذا العمل مصدرَ رزقي منذ ما يقارب العامين ، كنتُ أحصل من خلاله على قوتي وقوت والدتي التي كادت أن تفقد بصرها من جراءِ عملها المستمر في الخياطة .

لم أكن أحب عملي كثيراً بالرغم من أنّي قد اعتدتُ عليه ، فلقد كنتُ أتعرضُ لبعضِ المواقفِ التي كانت تمسُّ كرامتي وتحطمني من الداخل .

ولولا أنّي كنتُ مجبراً على العمل لتأمين معيشتي ، لكنتُ قد تركتُ العملَ منذ مدةٍ طويلة .

كانَ البعضُ يحاول أن يستهزأ بي وبرفاقي بطريقةٍ أو بأُخرى ، باعتبارهم من الطبقةِ الرفيعةِ المخملية وكوني أنا ورفاقي من الطبقةِ الفقيرةِ المهمشة التي تسعى وراء رغيفِ خبزها .

ولعلَّ من أبرز المواقف التي تعرضتُ لها ، عندما وقفتُ عند طاولةِ أحد الزبائن أحملُ الصحون الفارغة ، حينها قالت السيدة الجالسة هناك لأبنها صاحب الأعوام العشر :

- عليك أن تدرس يا بني كي لا يؤول بك الحالُ وتصبح مثل هذا العامل ، وكانت قد أشارت إليَّ بطرفِ يدها بحركةٍ مليئةٍ بالسخرية والاستهزاء .

ابتسمتُ على اثرها ابتسامة خفيفة كنتُ مجبراً عليها بسبب نظام العمل ، وأخرجتُ بكل أدبٍ بطاقتي الجامعية ، وقد كتب عليها " كلية الطِّب البشري " ووضعتها بلطفٍ أمام عيني زبونتي المحترمة التي ثغرت فمها من الدهشة ، وانسحبتُ برزانةٍ إلى الداخل وبراكين من الغضب تضربُ بداخلي تودُ لو يفسح لها المجالُ لتضربَ وتحرقَ كل جدران الذلِ والإهانة التي كنتُ أتعرض لها وزملائي يومياً .

لقد بدا كل شيءٍ عادياً ذلك المساء ، عملٌ اعتياديٌ لا جديد فيه ، طاولاتٌ مليئةٌ بالزبائن ، وصحونٌ ممتلئة بالطعام تنتظر إيصالها للطاولات .

كل ذلك كان اعتيادياً حتى تلك اللحظة ، حين طلب مني المدير ايصال بعض الوجبات إلى الطاولةِ ذات الرقم " 38 " .

حملتُ الطعام وانتقلتُ بخفةٍ بين الطاولات حتى وصلت إلى الطاولة المطلوبة ، وقفتُ بأدبٍ بجوارِ الطاولةِ التي كانَ يجلسُ عليها رجلٌ وأمامه زوجته وفتاةٌ كانت شاردة الذهن تدير وجهها إلى الطرف الأخر .

طلبت بلطف أن يفسحوا لي المجال حتى أرتب وجبات الطعامِ على الطاولة ، سمعت حينها صوتاً مألوفاً أكاد أجزم بأنني قد سمعته بقلبي لا بأذني ، يقول لي " تفضل " وكأن شيئاً ما قد ثبّت نظري على الطاولة ، حتى أنّي لم أجرؤ أن أرفعَ نظري لأرى صاحبة الصوت ، شعرتُ بنيرانٍ أضرمت بداخلي تتمنى أن لا يكون صاحبُ الصوتِ أنتِ يا شمس ، تقابلها بحارٌ من الشوقِ تحاولُ أن تطفئ النيران وتتمنى أن تكوني أنتِ حتى أروي ظمأي لرؤيتكِ .

رفعتُ نظري بثقلٍ كمن يحمل جبلً فوق رأسه ، والتقت عيناي بعينيكِ ، لم ادري حينها هل توقفت الأرض عن الدوران ، أم أنّي لم أعد أشعر بشيءٍ سوى الدفء الذي كان يشعُّ من عينيكِ ، والنار التي كانت تأكل جوفي لأنني لم أكن أرغبُ أن تريني بذلك الموقف !.

حاولتُ للحظةٍ أن أفهمَ هل تغلّب النورُ الصادرُ من وجهكِ الذي كانت نفسي تتوقُ لرؤيته ، على الظلامِ الذي كانَ بداخلي لحظتها .

لم أشعرُ بشيء سوى أنّي استيقظتُ على صوت والدكِ يطلبُ مني أن أضع وجبةَ الطعام أمامه بطريقةٍ صحيحةٍ دون أن أريق الزيتَ على ثيابه !

تمالكتُ نفسي واستعدتُ رشدي ورتبتُ الطاولةَ وانصرفتُ مسرعاً بدون حتى أن أحاولَ أن أرى تعابير وجهكِ إثر تلك المصادفةِ الغريبة !! .

تساءلتُ حينها هل تراكِ تذكُرينني ! أم أنكِ قد نسيتِ كل شيء ولم أمرَّ لحظةً في ذاكرتكِ منذ اللحظةِ التي غادرتِ فيها لقاءنا .

أتراكِ تشبهين ذلك النوع من المتكبرين الذين يروننا أقل مرتبةً منهم !!

لكن لا ، يستحيلُ أن تكونَ تلك البراءةُ في وجهكِ قد تلوثت بتكبرهم التافه ، محالٌ أن يكونَ ذلك النقاء في عينيكِ قد تعكَّر بغبارِ غرورهم الكريه .

لكن ما هذه الصدفةُ الغريبةُ التي جاءت بكِ إلى هذا المكان، وفي ذاتِ اليوم التي التقيتكِ به !

أو بالأحرى ، ما هذا القدر الذي يبدو بأنه يخبئ لنا أكثر مما أتوقع بكثير !!

أتدرين يا شمس .. ؟!

أنا لا أؤمن بالصدف ، أنا أؤمن بأنَّ لكلٍ منّا قدره المحتوم، تسيرُ بنا هذه الحياة كما هو مقدرٌ لنا تماماً ، نقابلُ أشخاصاً مقدراً لنا أن نقابلهم ، لا من باب الصدفة ، و نودعُ أشخاصاً كتب علينا أن نفارقهم ، وليس من باب الصدفةِ والحظ السيء أبداً .

وأن يسوقكِ القدر مرتين إلى طريقي في يومٍ واحد لا يمكن إلا أن أعتبره بشارةَ خير ، ولا يمكن أن يكونَ صدفةً أبداً .

دخلتُ إلى مطبخِ المطعم وكأنّي خارجٌ من معركةٍ للتو ، أو كأنّي قد نجوتُ من الموتِ بأعجوبةٍ منذ لحظات .

وجهي أصفرٌ بارد ، نبضات قلبي متسارعة كأنها تتسابقُ في مضمار خيل ، أعصابٌ مشدودة كحبال تربط ما بين جبلين متباعدين .

حتى عيناي غلبتهما غشاوةٌ حتى أصبحتُ لا أرى أمامي إلا خيالاً ، وهذا ما أدى بي إلى الاصطدامِ بالعاملِ الذي يحملُ صحوناً فارغةً يسرع بها إلى الداخل ، مما أدى لسقوطها وتحطمِ عددٍ منها .

وقد أثارت ضجةُ التحطمِ تلك انتباهَ مدير المطعم الذي ما إن رآني على تلك الحالة حتى ظنني مريضاً ، وطلب مني أن أعود إلى المنزل لكي أرتاح .

ويحهم يا شمس ! سمعوا ضجةَ تحطمِ الصحون البسيطة ولم يسمعوا ضجيج الجبال التي تتحطم بداخلي ، لم يشعروا بالنيرانِ التي اضطرمت بقلبي والتي لن تطفئها إلا عينيكِ!.

استبدلتُ ملابسي ، وخرجتُ من المطعم إلى الشارعِ الذي بدأت تتجمع فيه بركٌ صغيرةٌ من المياه نتيجة الأمطار التي بدأت تتزايد رويداً رويداً ، وكأنها تريدُ أن تطفئ النار التي بداخلي ، أو أنها تريدُ إنباتي من جديد بعد أن تحطمتُ كلياً أمام طاولتكِ .

مشيتُ على الرصيف وحباتُ المطر تلامس رأسي فتصطدم بالأفكار التي كادت أن تثقبه لشدةِ التداخل فيما بينها .

لماذا تسوقُ لنا الأقدار أشخاصاً تحبهم قلوبنا بدون حواجز، وتضع عقولنا كل الحواجز فيما بيننا ؟!

لماذا تسوقنا الأقدارُ إلى طرقٍ نعلم قبل أن نسلكها بأن نهايتنا ستكون فيها ؟!

لم قد تدفعنا الأقدارُ إلى بحرٍ هائجٍ ، ثم لا ترسلُ لنا قارب نجاة ؟!

لم تكوني أنتِ البحرُ يا شمس ، ولم تكوني أبداً ذلك الطريق الذي أجدُ فيه نهايتي ، لقد كنتِ دائماً قاربَ النجاةِ الذي ينتشلني إلى الشاطئ بينما تغرقني الدنيا ، وكنتِ دائماً رفيقةَ دربي التي يحلو معها الطريقُ ويزهر .

لكنَ هذا المجتمع ظالمٌ يا شمس ، لن يتركَ قاربَ نجاتنا يبحر بدونِ أن يحاول خرقهُ ، ولن يتركَ رحلتنا تسير في الطريقِ بدون أن يضع لنا في كل خطوةٍ أشجار الشوكِ وأكوام الحجارة !

قد تقولين لي بأنّي جبان ، استسلم قبل بدء الحرب، أو إنني خائفٌ أتنازل عن أسلحتي قبل أن أحارب فيها .

نعم يا شمس ..

أنا استسلم مئةَ مرةٍ إن كنتُ أعلم بأنكِ خسارةُ تلك الحرب، وإنّي أفضلُ أن اقتلَ نفسي بأسلحتي ألفَ مرةٍ إن كنت أشك للحظةٍ واحدة بأنَّ من المحتمل أن تتأذى زهرةً واحدةً في حديقة منزلكِ من آثار حربٍ تخوضها أسلحتي !

فما باللكِ بحربٍ قتيلاها أنا وأنتِ يا شمس !! .

ثم كيفَ لي بأن أدخل حربكِ ، وأنا لم أعرف بعد موقعكِ فيها .

أتراكِ ستكونين معي ونخوضها سوياً ؟

أم تُراكِ ستقفينَ ضدي ، وحينها أكون قد قتلتُ بيديكِ بدون حتى أن أخوض نزالاً واحداً ! .

أتراكِ قد وضعتِ في قلبي جمرةَ الحب ، ولم يكتوي بها قلبكِ ؟! .

هل عَلِقَ في عينيكِ شيءٌ من البريق الذي انعكسَ في عينيَّ حباً ! .

لم أشعر إلا وقد وصلتُ إلى باب بيتي وبدأتُ أطرقه طرقاً خفيفاً ، وكأنَّ يديَّ تحولتا ليدي عجوزٍ يصارع الموت. فتحت أمي الباب مستغربةً أن يطرقَ بابنا أحدٌ في مثل ذلك الوقت الذي كان يبلغ الحادية عشر مساءً .

ما إن رأتني على تلك الحالة ، حتى ضربت بيدها على صدرها وصاحت برفق :

- ما بك يا بني ! هل أصابك مكروه ؟ وجهكَ أصفرٌ يا ولدي !

حاولتُ أن أكتم ينابيعَ الدمعِ التي بدأت تتفجرُ من عينيَّ منذُ لحظة خروجي من المطعم .

- لا شيء يا أمي ، لا تقلقي ، نزلةُ بردٍ خفيفة وستزولُ صباحاً .

وأسرعتُ إلى غرفتي حتى لا تكشفَ أمي ما آلت إليه عينيَّ من الحزن والانكسار ، لحقت بي إلى فراشي تدثرني بالأغطية وتدعو لي بالشفاء .

- هل أحضرُ لكَ مشروباً ساخناً يا ولدي ؟
- لا يا أمي ، لا أريدُ شيئاً ، أريدُ أن أنام وحسب .

شعرتُ حينها وأنا أحاول أن أخفي حالتي عن أمي بأنني كالشجرةِ التي تحاولُ أن تختفي خلف قشةٍ محروقة .

- لا بأس يا ولدي نم جيداً ، وتذكر بأن الله ما زرع في قلبكَ بذرةً إلا وقد منحك القوة كي تحميها لتصبح شجرةً وتقطف ثمارها ، وما وضع فيك أملً إلا وقد منحك القوة لتصل إليه ، أن تموتَ في معركةٍ يا ولدي أفضل ألف مرة من أن تموتَ وأنت تتحسر لأنك لم تدخلها !.

-2-

لم أنم في تلكَ الليلةِ ، بقيت أمواجُ الأفكار تضرب شواطئ عقلي حتى ساعاتِ الفجر الأولى .

كانت كل موجة تصل إلى الشاطئ تفتت جزءاً من صخور القيودِ التي وضعها عقلي على أبواب قلبي .

لقد بدأتُ أحبكِ يا شمس ، بدأت راياتُ هواكِ تعلو وتخفقُ في قلبي ، بالمقابل بدأت حصونُ الأفكارِ التي سيطرت على عقلي تتهاوى أمام كل لحظةٍ يمر بها خيالُ عينيكِ أمام فؤادي .

لم يقطع هذا المدُ من الأمواجِ إلا صوتُ الأذان الذي رفعه المؤذن يعلن حلول صلاة الفجر ، نهضت من فراشي وتوضأتُ و وقفتُ على سجادة الصلاة أزيح عن قلبي هموماً تراكمت ، وأغسل روحي من أدرانٍ علقت في أطرافها ، نحنُ نحيا بالصلاةِ يا شمس ، نعيد تقوية طاقاتنا التي أنهكتها الحياةُ وأفرغتها ، نعيد ترتيب أرواحنا التي تمزقها المصائبُ والهموم .

أذكر بأنكِ قلتِ لي مرةً بأنكِ حين تراودكِ الكآبة والحزن تلجئين إلى الصلاة ، وها أنا يا شمس قد بدأتُ حُبكِ بصلاة، بدأتِ تتسربين في عروقي وأنا ساجد ، دعوتُ الله بسجدةٍ بعد الصلاة أن يرزقني قليلاً من كلِّ خير ، وقد لبى الله دعائي في لحظتها ومنحني كلَّ الخيرِ في حُبكِ !

ما بالُكِ بحبٍ يبدأ بصلاة ، أتراه يمرُ بصلاة فجرٍ تجمعنا سوياً على سجادة صلاةٍ واحدة ؟! .

استيقظتُ متأخراً كعادتي على صوت أمي تعلمني بأنني قد تأخرتُ على محاضرةِ الثامنة صباحاً ، فتحتُ عيناي وكأنني أرى الحياة للمرة الأولى ، كأنني أولدُ من جديد . نحن نولدُ بالحبِ يا شمس ، تُخلقُ أرواحنا مرة أخرى نقيةً كما خلقت أول مرة .

بالكاد استطعتُ أن أتناول جزءاً من فطوري وأركض باتجاه الحافلة التي تقلني إلى الجامعة .

دخلتُ من البابِ الخلفي للمدرج الممتلئ عن بكرة أبيه

" الأمر الذي يعتبر طبيعياً في كلية الطب "

وقد كان البروفيسور المحاضر منهمكاً في شرح محاضرته.

أخذتُ مكاني وبدأتُ أتفحصُ وجوه الحاضرين ، أبحثُ فيه عن وجهكِ كي تشرقَ شمسُ قلبي ، وتبدأ الحياة تدب في شراييني .

وبالفعل ، رأيتكِ جالسةً في المقعد الرابع منهمكةً في تدوين الملاحظات التي أكادُ أجزمُ بأنني لم أسمع حرفاً منها بسبب انشغالي بتأمل ملامح شروق الشمس في وجهكِ ، وحركة أناملكِ التي تجرُّ القلمَ بخفةٍ فوق دفتر الملاحظات .

كان الله بعون قلمٍ تكتبين به ، أتراه يركز فيما يكتب أم يذوب من رقة أناملكِ ، وتلك الأوراقُ المسكينةُ التي صرتُ أحسدها لأنكِ تركزين نظركِ عليها ومنشغلةٌ بالكتابةِ فيها في الوقت التي يكاد قلبي ينفطر لنظرةٍ واحدةٍ منكِ .

كنت أنتظر بلهفةٍ للحظةِ التي سينهي فيها البروفيسور محاضرته التي لم أركز فيها لحظةً واحدةً حتى أستطيع الحديث إليكِ .

وبالفعل ، ما هي إلا ساعة ونصف " شعرتُ كأنها الدهرُ أو أطول من ذلك " حتى أنهى البروفيسور محاضرته.

وبدأت جموعُ الطلاب تغادر القاعة ، وغادرتِ أنتِ أيضاً لألحقَ بكِ وأنفاسي تكاد تتوقفُ من الخجل وينابيعٌ من العرقِ تصب على جبيني خجلاً وخوفاً من ردةِ فعلكِ بعد موقف البارحة .

وبدون أن تشعري أصبحتُ بمحاذاتكِ على الدرج ، وعلى غفلةٍ منكِ بادرتكِ قائلاً :

- صباح الخير
- " بمزيجٍ من المفاجئةِ والاستغراب " صباح النور
- هل أعجبكِ طعامُ العشاء البارحة ؟
- نعم ، شكراً لك ، لولا أنكَ كدتَ أن تسكبَ الزيتَ على ملابسِ والدي .
- أعتذرُ حقاً ، لقد فاجأتني رؤيتكِ هناك .
- لماذا ؟ هل من الغريب أن أكونَ هناك ؟!
" قلتيها وكأنكِ تحاولينَ حملي على قول ما أخفيه "
- بالطبع لا ، لكن لربما كانَ من الغريبِ أن أكون أنا هناك !
- هل أزعجكَ أنك قدمت الطعام لي ؟!
- ربما أزعجني شعوري بأنكِ قد تكونين مثلهم !

- من هم ؟!

ولأنني كنتُ أحاول أن أبقي على خيوطِ أملٍ للقاءٍ قادم ،

لم أُجبكِ على سؤالكِ ، تهربتُ قائلاً :

- أنا الأن متأخرٌ على جلسة عملي النسج ، ربما نلتقي مرةً أخرى لأخبركِ عنهم ، إلى اللقاء .

وربما لأنني لم أودُ أن تجبريني على الإجابة بنظرةٍ حازمةٍ من عينيكِ تقنعين بها قلبي وتسيّرين عقلي كما تشائين .

لا أدري يا شمس كيف أصف لكِ كم كنتُ سعيداً ذلك اليوم، لأنني استطعتُ أن أحادثكِ ولو لدقائقَ معدودة !

كان لذلكَ الحديث أثراً بالغاً في قلبي أكادُ أجزمُ بأنني أشعر به إلى هذه اللحظة !

لقد استطعتُ أن أعبرَ إليك ولو خطوة ، خطوةٌ هي الأهم في حياتي كلها ، لأنكِ أصبحتِ الأهم في حياتي يا شمس .

خرجتُ من جلسة العملي ، واتجهتُ فوراً إلى المنزل كي أرتاح قليلاً ، حيث ينتظرني يومُ عملٍ جديدٍ في المساء .

دخلتُ المنزل وكعادتي ناديت :

- أمي ما الغداءُ اليوم ؟

لكنَ أحداً لم يجب على ندائي ، فأعدت الكرّة وأنا ادخلُ غرفةَ المعيشة ، أمي أين أنتِ ؟ كانت ساجدةً على سجادة الصلاة ، فتركتها وذهبتُ إلى غرفتي أرمي محاضراتي التي أثقلني حملها .

وعدتُ مجدداً لأرى إن كانت أمي قد أنهت صلاتها .

جلستُ بجانبها كعادتي حين تصلي ، حيثُ كنتُ أجلسُ بجوارها أستمتع بسماعها تدعو لي ، واستمتعُ برؤيةِ النورِ يشع من وجهها ليلامس أطراف السماء .

لكن هذه المرة كان هنالك شيئاً مختلفاً ، لقد أطالت أمي السجودَ على غير عادتها ، صمتٌ مهيبٌ كللَ سجودها !! ناديتُ وشيءٌ من الخوفِ بدأ يتسرب إلى قلبي :

- أمي ..أمي .. هل أنتِ بخير ؟!

وما كدتُ ألمس كتفها حتى خرّت على جانبها جثةً هامدة لا حياة فيها .

شعرتُ بأن قلبي قد أقتلعَ من مكانهِ وهبط عند قدميها .

أمسكتُ يديها الباردتين وصرخت بكل ما في هذا العالم من قهر ، أمي ، أمي ، لا تتركيني وحيداً ، لا ترحلي أرجوكِ لا تذهبي وتتركيني لوحدي !!

ارتميتُ على قدميها أقبلها لعلّي أبثُ فيها شيئاً من الحياة التي لطالما منحتني إياها .

قبلتُ جبينها وغسلتُ وجهها بدمعي الملتهب ، وصوتي ينادي أمي بكل ما في قلبي من حرقة ، احتضنتها كما كانت تحتضنني عندما كنتُ طفلاً ، ونارُ قلبي مستعرةً كجحيم جهنم أو أكثر ، ودمعُ عيني يسيل كشلالاتٍ من حمم براكين فجرت للتو .

لقد كنتُ أضعف من أن احتملَ صدمةً كهذه ، شعرتُ بأنني في كابوسٍ وددتُ لو أنّي استفقتُ منه سريعاً!

احتضنتها بكلِّ ما في هذا العالم من حزن ، من قهر ، من ألم !

وضعتُ يدي الباردتين على خديها وبدأتُ أتوسل إليها لعلها تستيقظ .

أمي .. أمي .. قومي أرجوكِ ، أمي .. ما الغداءُ اليوم ؟

أمي من سيوقظُ طفلكِ الكسول في الصباح ؟ من سيكوي ملابسي ؟ من سيسند رأسي على كتفه حين أميل ؟ من سيمسح دمعي ؟ من سيوقظني على صلاة الفجر ؟! .

لم ترد أمي عليَّ يا شمس !

يبدو أنها لم تكلمني مرةً أخرى !!

وحينَ شعرتُ بأن لا فائدة من الكلام ، ارتميتُ بحضنها للمرةِ الأخيرة ، ارتميتُ لأملئ صدري دفئاً من قلبها أخبئهُ للأيام الباردة التي بانتظاري .

احتضنتها كرجلٍ يودعُ لآخرِ مرةٍ باب الجنة وسيُلقى به إلى جهنم بعدها ، تمسكت بها كطفلٍ يمسك جذع شجرة لينجو بها وكل ما حوله يدفعه ليغرق في اليم .

بكيتُ وبكيتُ و بكيتْ !!

توسلتُ إليها بكل ما استطيعُ لكن بدون جدوى .

وحين ادركت أن لا فائدة من ذلك ، نهضتُ من جوارها بجسدي فقط وبقيت روحي تقبل يديها .

جهزتُ مراسمَ الدفن ، وحفرتُ بنفسي القبرَ الذي سيبعدُ أمي عني ، نبشتُ الترابَ الذي سيفرّقُ بيني وبين القلب الذي احتواني .

انزلتُ أمي إلى قبرها ، هيأتُ لحدها ، قبلتُ جبينها للمرة الأخيرة ، ثم خرجت من القبر كمن يخرجُ من الجنةِ إلى النار .

تركتُ أمي خلفي وحيدةً يا شمس ، ليتني كنت أستطيع أن أنام بجوارها ، ليتني كنت أستطيع أن احتضنها وأموت معها وندفن سوياً ، على الأقل لن أشعرَ بالوحدةِ بعيداً عنها .

ولكن لا جدوى من كل ذلك .

بدأتُ أنثرُ الترابَ فوقها ، وكأنني أنثر مع كل حبة ترابٍ قطعةً من روحي ، ومع كل دمعةٍ ذرفتها عيني ، سقطت حفنة من دمي لتروي ترابَ قبر أمي ، غادرَ الجميعُ المكان، وبقيتُ وحدي أنا وأمي ، ولكن هذه المرة يفصل بيننا التراب، يفصل بيننا القدر ، هذه المرة هي في الجنة وأنا في النار.

أتراها تستطيع أن تدعو لي يا شمس ؟

وهل تراني سأستطيعُ أن أكملَ هذهِ الحياة بدونها !!

بعد أن سقيتُ ترابَ قبرها بدمعي ، وعدتها بأن أزورها في كلِّ يوم ، وقبل أن أمضي قبلتُ الحجر الذي وضعته على قبرها .

آهٍ يا شمس ..

بعد أن كنتُ أقبل يديها ورأسها ، ها أنا اليوم أقبل حجراً هو كل ما تبقى لي من أمي ، وكأنَّ الدنيا كلها أصبحت عبارةً عن حجرةٍ فوق قبر أمي !.

-3-

كانت أيام العزاء الثلاثة أطول أيام عمري وأتعسها ، كنتُ أجلسُ مع الرجالِ الذين كانوا يأتون لتأدية واجب العزاء، فأنشغلُ قليلاً عن كوابيس الأفكارِ التي تراكمت على صدري فأثقلته .

وما إن يخلو المنزل من المعزين وأبقى لوحدي ، حتى تنهال الأفكار السوداء على عقلي وقلبي كجبلٍ تناثرت صخوره قطعاً حارقة .

تارةً أبكي بكاءَ طفلٍ لم يتجاوز الخامسة ، وأضربُ الأرض بقدمي كمهرٍ صغيرٍ فقد والدته .

وتارةً أتأملُ الجدار وأرسمُ عليه أفكاراً جنونيةً للانتحار . وتارةً أحتضن صورةَ أمي واستلقي في فراشها وأنام باكياً لأستيقظ في الصباحِ وبركٌ من الدموع تفيض بها الوسادة .

لم أخرج من منزلي طيلة الأيام الثلاثة إلا لزيارة قبر أمي.

لم أذهب للعملِ ولا حتى للجامعة .

لا أعلمُ إن كنت قد خطرتُ في بالكِ يا شمس ، هل تساءلتِ عن سببِ غيابي ، أم أنكِ لم تشعري بغيابي أبداً !

ولكنني لم أنساكِ يا شمس ، ولا أكذب إن قلتُ لكِ بأنكِ السببَ الوحيدَ الذي منعني من الانتحار في الساعات التي أظلمت فيها الدنيا في عيني ، كنتِ أملي الوحيد المتبقي لي في هذه الدنيا ، الوردة الأخيرة المتبقية بين ركام القبور في قلبي ، صحيحٌ بأنّي لم أكن أعلم بمشاعركِ ، ولم أكن أدري إن كنت ستقبلين بشخصٍ ضائعٍ مثلي ؟!

ولكن مجرد وجود حبكِ في قلبي كان كفيلاً بمنحيَّ الحياة ، مجرد الأمل بأن نكون معاً كان كفيلاً بدفعي للمحاولة ، ومن غيركِ يا شمس يستحق المحاولة لأجله ! .

في اليومِ الرابعِ ذهبتُ إلى الجامعة ولا شيء يملئ قلبي وعقلي إلا حزني على أمي وشوقي إليكِ ، لقد قررتُ أن لا أفكر في أي شيءٍ آخر في هذه الحياة .

الكمُ الهائل من الأفكار التي اجتاحتني خلال الأيامِ الماضية كانت كفيلةً بتدميري لو أعدتُ مجرد التفكير بها فقط ! .

وصلتُ الجامعةَ وأنا اتساءل هل يا ترى سأراكِ اليوم ؟

وإن رأيتكِ هل أذهب للتحدث إليكِ ، أم أنكِ سترفضين الوقوفَ معي مجدداً ؟! .

دخلتُ المدرج المكتظ كعادتهِ بالطلاب ، وجلستُ بآخرِ مقعد، بينما كانَ البروفيسور المحاضر منهمكٌ في محاضرة الفيزيولوجيا التي كان يلقيها آنذاك ، لم يكن لدي الكثير من الأصدقاء بحكم أنني لا أطيل المكوث في الجامعة بسبب عملي ، على عكسِ أقراني من الزملاء .

بحثتُ عنكِ في جميعِ الوجوه الناعسة الموجودة ولم أجدكِ.

قلتُ في نفسي حينها ، ربما لم تحضر في هذا اليوم !

وربما من الجيدِ أن لا أقف في طريقها حتى لو وجدتها ، ولكن بركاناً من الأشواقِ متفجرٌ في قلبي ، لم ترق له تلك الفكرةِ أبداً ! .

كان على استعدادٍ لفعلِ أي شيء لمجرد الوقوف معكِ للحظةٍ واحدة .

أنهى البروفيسور محاضرته وخرجتُ سريعاً من المدرج ، وابتعدتُ عن حشودِ الطلاب الخارجة بكثافةٍ ، و وقفتُ على نافذةٍ مطلةٍ على مكانٍ مفتوحٍ يحوي البعضَ من الأشجار ،

ونيرانٌ من الشوقِ والحزنِ تكوي قلبي لأنني لم أجدكِ ولم أراكِ .

وبينما أنا غارقٌ في حزني وشرودي ، انتشلني صوتكِ الهادئ الذي سلبَ عقلي وشلَّ حركةَ الدماءِ في عروقي .

- لم تقل لي من هم أولئك الذين لم ترغب أن أكون مثلهم؟
- " بالكاد استطعتُ أن استعيدَ توازني ، وأمعنَ النظر في عينيكِ وأجيبكِ "

أولئك الذين يصنفون الناس تبعاً لما تحويهِ جيوبهم لا ما تحويه عقولهم وقلوبهم !

- وهل يوحي لكِ مظهري بذلك ؟!
- لطالما خدعتنا المظاهرُ ، لطالما خدعنا أولئكَ الذين يدَّعون الإنسانية والمثالية ، وهم في الواقع ممتلئين بالحقد والطبقية .
- هل أفهم من ذلك بأنك تتهمني بأنني أظهر عكس ما أخفي ؟!
- على العكسِ تماماً ، أنا الآن واثقٌ بأنَّ ما يعكسه مظهرك من الرفق والانسانية ، ما هوَ إلا انعكاسٌ حيٌ لداخلك الممتلئ جمالاً ورقياً .

- وكيفَ تأكدت من ذلك ؟
- لأنك تركتِ محاضرةَ التشريح التي بدأت منذ خمسِ دقائق ، واخترتِ الوقوفَ مع شخصٍ بائسٍ مثلي !

وضعتِ يدكِ على فمكِ مندهشةً وأنتِ تنظرين إلى الساعة التي تشير إلى العاشرة والخمس دقائق ، اتجهتِ مسرعة نحو المدرج وأنتِ تقولين لي : علينا أن نسرع حتى نتمكن من الدخول .

تبعتكِ والفرحُ يغمر قلبي برغم كل الأحزان التي تعصف بي .

بدأت الحياة تسري في عروقي من جديد يا شمس ..!

بعد انتهاءِ المحاضرة ، خرجنا سوياً مع ما يقارب المئة من الطلاب الذين كانوا ينصتون بالداخل بشغفٍ لكلامِ البروفيسور المحاضر ، بينما كنتُ أنا أسترق في كل مناسبةٍ النظر إليكِ وأنتِ تمعنين النظر في الصور التشريحية المعروضة على شاشة الإسقاط ، كانَ أملي بالحياةِ يزدادُ في كلِّ لحظةٍ أكون فيها بقربكِ ، وتزداد معه قوتي لمواجهة كل ما هو قادم .

برغمِ كلِّ ذلك ، كانَ عقلي لا ينفكُ يبثُّ بداخلي الأفكار الحزينة السوداوية ، بالرغم من كل الفرح الذي يغمرني وأنا جالسٌ بجوارِكِ ، وكأنَّ القدر قد حكم عليَّ أن أحزن وأنا في قمة سعادتي ، وكأن الحزن خيالٌ ملاصقٌ لي ، لن يفارقني ولن أفارقه !!

في الوقتِ الذي كان قلبي يبني قصوراً من الحب ، ويعلي سقفَ آماله ، وكأنه ضمنَ بأنني سأنال حبكِ ، كان عقلي المعتاد على الخيبات في كل لحظةٍ يقطع تلكَ اللحظات السعيدة بأسئلةٍ لم أكن أملكُ إجابتها : ماذا لو لم تحبك ؟ ماذا لو خذلتك ؟ ماذا لو كسرتك لو اعترفت لها بحبك ؟

ماذا لو .. ؟ ماذا لو ...؟!

أسئلةً كانت كافيةً لتقض مضاجع البهجة في قلبي الذي كان يحاولُ أن ينالَ قطرة فرحٍ بعد كل تلك البحارِ من الحزن والخيبة التي مرَّ بها .

قطعتِ عليَّ شرودي بسؤالكِ :

- ما رأيكَ بالمحاضرةِ التي كنّا نحضرها قبل قليل ؟
- جيدةٌ إلى حدٍ ما ، لكنني لم أستطع أن أفهم الكثيرَ مما قيلَ هناك !

- لماذا ؟
- ربما لأنني لم أتمكن من دراسة المادةِ منذ البداية ، لذلك لم أستطع أن أكوَّن قاعدة معلومات تشريحية أستندُ عليها .
- أعتقد بأنَّكَ لستَ الوحيد في ذلك ، معظمُ الطلابِ بما فيهم ، أنا نمتلك نقصاً واضحاً في التشريح ، ربما يجدرُ بنا أن نتمكَّن من القسم العملي أكثر حتى نفهم القسم النظري .
- بالضبط ، علينا أن نتمكن من القسم العملي للتشريح ، حتى تكون لدينا ملامح واضحة للبنى التشريحية التي ندرسها ، وأن نتمكن في القسم النظري حتى تتكامل معلوماتنا ونصل إلى الفهم الواضح ، والتمكن من التشريح بشكلٍ جيد .
- التشريح مادة مهمَّةٌ وأساسية في الطب ، وعلى كلِّ طالبٍ أن يتقنها بشكلٍ جيد .
- ليست المادة الوحيدة التي نعاني من تقصيرنا فيها !
- هناكَ الكثير من التقصير إن كنا سنواصلُ الحديثَ عنهُ فلن ننتهي أبداً !

قلتِ جملتكِ وابتسامةٌ صغيرةٌ تعلو وجهكِ المشرق دائماً ، ثم أكملتِ الحديث :

- عليَّ أن أعود للمنزل ، فأهلي بانتظاري على الغداء، واعتقدُ بأن أهلك بانتظارك أيضاً .
- لا أهل لي يا شمس .

وقفتِ مندهشةً وكأن ماءً بارداً صبَّ فوق رأسك ، علاماتٌ من الدهشةِ والاستغراب رسمت ملامحاً حزينةً على وجهكِ الطفولي البسيط ، بالكاد استطعتِ أن تنطقي بكلمتين و دمعٌ خفيفٌ بدأ يلمعُ في عينيكِ يدلُّ على صفاء قلبكِ وحسن أخلاقك :

- كيف هذا ؟!!
- ماتَ والدي قبل أن أولد ، وماتت أمي منذ ثلاثة أيام .

اتسعت ملامح الدهشةِ في وجهكِ ، واكتست أيضاً بحزنٍ مفاجئ بدأ يتمثل بدمعٍ صارَ يسيلُ واضحاً من عينيكِ .

كنتُ أعشقُ تلكَ الإنسانية منكِ ، ذلك الحنانُ الذي كانَ يجمعُ كلَّ حنان الأمهات في الأرض ، وتلك الرِّقةُ في عينيكِ والتي تتحول لدمعٍ عند كل موقفٍ محزن .

- رحمَ الله والدتكَ يا بلال واسكنها فسيحَ جنانه بإذنه تعالى ، اعتذرُ أنني لم أعزيك مبكراً ، ولكن لم يكن لدي علمٌ بذلك .

- لا عليك ، لا أحد في الكليةِ يعلم بذلك سوى صديقي أحمد .
- ألا يوجد أقرباء لديك ؟
- تلك قصةٌ طويلة أرويها لكِ فيما بعد إن شئتِ ، والآن أنتِ متأخرةٌ على غداءكِ وأنا متأخرٌ على عملي .
- أودُ بكلِّ تأكيد أن ترويها لي ، حسناً إلى اللقاء .

لا أبالغُ إن قلتُ لك بأنكِ كنت تكبرين في قلبي رويداً رويداً، كنتِ كالشجرةِ التي تبدأ ببذرةٍ صغيرةٍ ، ثم تنمو لتغرسَ جذورها في شغافِ القلب ، وتبزغُ قمتها من قمة القلب ، وكأنها ملكةٌ لا ينازعها في عرشها منازع . ولا أنكرُ أنّي كنت حينها مزيجاً من الشغفِ الممتلئ حباً بكِ ، والترقبِ الممتلئ حذراً مما هو قادم !.

نحنُ حين نحب ، نخافُ على من نحب من كلِّ شيء ، من مشاعرنا ، من خوفنا ، ومن أنفسنا حتى .

نخافُ عليهمِ من المجتمعِ الذي تركَ وأد البنات كفعل واعتنقهُ كفكرة .

نخاف عليهم أن يحبونا فيشتاقوا لنا ، وأن يشتاقوا لنا فيتألموا.

ونخاف ألَّا يحبونا فتموت الحياة في أعيننا ، وتجف تلك الشجرة التي سقيناها بدمائنا وحبنا .

أترين يا شمس ما يفعل بنا الحب ، يكبلنا بقيودِ الخوفِ من جهة ، ويحررنا من أنفسنا ليزرعنا في أرواحِ من نحب من جهةٍ أخرى .

كانت الأيام تمر مسرعةً على قلبي ، كنتُ أعاني فقدَ أمي وكأني أحمل كل أوجاع العالم ، وكنت أفرح بكِ وكأني أحمل بقلبي كل حب هذا العالم .

هكذا كنتِ يا شمس ..

تزيلين بحضوركِ كلَّ الهموم من قلبي ، وكلَّ الأفكارِ السوداءِ التي كانت تجول بخاطري .

كنتُ قد بدأتُ أتعلق بكِ رويداً رويداً ، بعد كل لقاءٍ لنا ، وبعد كل نقاشٍ كنا نخوضه عن الجامعة وعن الطب وعن الأحلام، كنتُ أشعرُ بأنكِ أصبحتِ تنغرسين في روحي شيئاً فشيئاً .

بالمقابل ، كنتُ أشعرُ بأنكِ كنتِ تستمتعين بحوارنا مثلي تماماً ، دون أن يزيلَ ذلكَ حجاب الرصانةِ والأدبِ و الاحتشامِ من قلبك .

كنتِ في كل لقاءٍ تثبتين لي بأن الأدبَ والحياءَ يزيدان في أنوثةِ الفتاة أكثر مما تفعل كل مستحضرات التجميل !

وعلى قدرِ ما كنت أهيم بكِ حباً ، كنتُ حريصاً على ألا يظهر لكِ شيءٌ من هذا . ربما كنتُ أخشى أن أخسركِ ، وربما كنت أودُّ أن تتعرفي عليَّ أكثر ، قبل أن أعترف لكِ بما أكنّه في قلبي اتجاهكِ .

أذكرُ يا شمس ذلك اليوم ، حينَ كنا قد خرجنا من محاضرةٍ في الفيزيولوجيا أرخت بسدولِ الإرهاقِ على عقولنا .

أخذنا فنجانين من القهوةِ وجلسنا على الرصيفِ أمام باب الكلية ، حينها ولأول مرةٍ قررتُ أن أبدأ بمجازفةِ الاعتراف بحبي لكِ !

لم أشأ أن يكونَ اعترافاً تقليدياً ، لأنكِ لم تكوني تقليديةً أبداً! كنتِ مميزةً في كل شيء ، وعن كل شيء .

استغليتُ غيابكِ لدقيقةٍ وقفتِ فيها مع صديقتكِ أمل و وضعتُ في دفترِكِ رسالةً كنتُ قد قضيتُ ليلةً كاملةً أعدها وأنسقها لتليق بأميرةٍ مثلك . عدتِ مسرعة وحملتِ كتبكِ وقلتِ بأنكِ مضطرةً للذهابِ مع صديقتكِ .

- لا بأس نلتقي غداً إن شاء الله .
- حسناً ، إلى اللقاء .

كانَ ذلكَ اليوم من أطولِ أيام عمري وأصعبها ، لم أكن أعلم ما ينتظرني حين تصلين منزلكِ وتفتحين الرسالة !!

أتراكِ ستغضبين ، أم أنك ستفرحين ! .

لقد كان خجلكِ وحياؤك مسيطراً بحيث لا يمكن لأي شعورٍ أن يظهر وينكشف .

لذلك كنت ضائعاً ، تارةً أشعرُ بأنَّكِ تمتلكين مشاعر تجاهي، وتارةً أخرى أشعرُ وكأنَّ ما بداخلكِ ليسَ إلا صخرةً لا تحبُ ولا تشعر !.

هذا التناقضُ هو الذي أماتني حباً بكِ ، لم تكوني فتاةً عاديةً منكشفةَ المشاعر ، كنتِ تحملين النارَ في كف ، والماء في الكف الأخرى ! واضحةٌ مثل الشمس ،وغامضةٌ مثل ليل الشتاء ،متهورةٌ حدَّ المجازفة ، هادئةٌ كقطعة جليد !.

بالمقابل ، كنتُ أنا في تلك الليلةِ ضائعاً حد الجنون .

كلٌّ من حولي من الرفاقِ في المطعم لاحظوا هذا الارتباك الشديد الذي كان يعتريني ، حين طلب مني أحدهم أن أحضر

له ملحاً فأحضرت سكراً ، يرسلون معي طلباً إلى طاولةٍ فأذهب به إلى أخرى !

كنتُ عبارةً عن كتلةٍ متحركةٍ من الشرود والارتباك تتحرك بين الطاولات !

عقلي وقلبي وكلُّ ما أملكُ من الجوارح يفكر ما الذي سيحدث حين تلتقي عيناي بعينيكِ حين نلتقي بعد أن تكوني قد قرأتِ الرسالة ! .

أعلم بأنكِ ستقولين لي كفاكَ كلاماً يا بلال ، و هاتِ عنك مطيةَ الحديث ، أحدِّثك عمَّا جرى من أمرِ تلكَ الليلةِ وما تلاها ، ولأنني لا يمكن أن أرفضَ لكِ طلباً ، امتطي صهوة الكلام يا شمس و حدثيني عمَّا كان من أمرِ تلك الليلة .

هاتِ عنكَ الحديث يا بلال ، ليس زُهداً بكلامك ، وإنما شغفٌ يتملَّكني بأن أكتب عنك .

عدتُ في ذلك اليوم إلى المنزل بعدَ يومٍ متعبٍ و جميلٍ قضيناه في الأسواق ، نستعرض الملابس الجديدة ، ونتذوق أطيب المأكولات الجاهزة .

لم أنتبه في أول الأمر إلى تلكَ الورقةِ المدسوسة بين ثنايا دفتري .

وحينَ جلستُ بعدها إلى طاولتي أدرسُ ما دونته في دفتري، لاحظتُ تلكَ الرسالة ، كانت ورقةً بيضاء مطوية بعناية ، تفوحُ منها رائحةٌ جميلةٌ لعطرٍ أقلُّ ما يمكنُ أن يقال عنه أن رائحته جميلة .

انتابني فضولٌ شديدٌ وفتحت الورقةَ وبدأت أقرأ و الدهشة تدبُّ في أوصالي شيئاً فشيئاً :

أما قبل :

إنَّ لسكانِ هذه الأرض شمسٌ واحدةٌ تشرقُ في كلِّ صباح ، وإن لي شمسين ، واحدةٌ تشرقُ في كلِّ يومٍ ولا أحفل بها ، وأخرى أنتظرُ أن تشرقَ لتبدأ حياتي .

لا يمكنُ أن أعبرَ يا بلال بكلماتٍ بسيطةٍ عن ذلكَ الشعور الغريب الذي سرى في عروقي وتملَّكت دفقاته ملامحي !

مزيجٌ من الدهشةِ والخجلِ والخوف !

لقد كنتُ أشعرُ بلا شكٍ بمشاعركَ اتجاهي ، فأنا في نهايةِ المطاف امرأة ، وإحساسُ المرأة لا يخيب أبداً !

وبرغمِ معرفتي بمشاعرك ، فقد تملكتني الدهشةُ والخوف أيضاً ، ربما لأنني لم أكن أودُّ أن تبوحَ بذلك سريعاً ، وربما لأنني لم أكن أملكُ الكثيرَ من المشاعرِ تجاهك ، سوى شعورٍ بالراحة والأمان والطمأنينة يراودني حين تكون بجانبي أو حين تخطر لي .

لكن هذا الشعورُ لوحدهِ لا يكفي ، حتى أحبك يجب أن أثقَ بصدقِ مشاعرك ، وأن أتثبتَ من حسنِ نواياك ، لقد كنتُ عاقلةً بما يكفي لأفهم ما الذي يجري في مجتمعنا .

لقد أصبحَ الحبُ ستارةً يتوارى خلفها كل من يحملُ في نفسهِ نيةً سيئةً أو مرضاً بأخلاقه ، هؤلاء هم من شوهوا جمالَ الحبِ ، ودنسوا نقاءه يا بلال .

وجودُ هذا النوع من الأشخاص ، كانَ لابدَّ أن يدفعَ ثمنهُ أولئكَ الأشخاص الأنقياء الذين كانوا يخبئون الحب في قلوبهم وأرواحهم ، ويلبسونَ فوقهُ رداءً من الحياء والخجل، ما كان لهم من ذنبٍ سوى أنهم كانوا صادقين بمشاعرهم حد الطهر ، وطيبين في نواياهم حد النقاء .

وكفتاةٍ تخشى أن تسلِّمَ قلبها لرجلٍ لا يخشى الله فيها ، كانَ لابدَّ لي أن أتأكدَ من نواياك ، وأسبر أغوار خفاياك .

ولذلك كتبتُ رسالةً كنتُ أنوي أن أوصلها لكَ بذاتِ الطريقة التي أوصلتَ بها رسالتكَ إلي ، وبذات الوقت كنتُ أودُ أن تبقى علاقتنا كما كانت ، بدون أن يطرأ عليها أي تغيير ، وإن كنتُ سأتعبُ جداً من التمثيل بعد الشعورِ بمشاعركَ نحوي ! .

أعيدُ لكَ الحديث مجدداً يا بلال ، لأمتعَ قلبي و عقلي بسماعِ حديثكَ الذي لا يُملُّ .

إن أكثرَ ما أعشقه فيكِ يا شمس ، قدرتكِ على الاختباءِ خلف جدران الكلام .

ولا أنكر أنّي كنتُ أدفعكِ للحديثِ دفعاً ، لكي يتسنى لي تأملَّ اهتزازِ رموشِ عينيك ، الذي يعطي للكلامِ جاذبيةً خاصةً ، وحركةَ شفتيكِ بطريقةٍ تجعلُ للكلامِ تراتيل مهيبة ، وكأنني أسمعُ لحناً موسيقياً ، أو سيمفونيةً لبيتهوفن !

لقد كانت ليلةً طويلةً لم أقضي مثلها أبداً ، كانت الثواني تمرُّ وكأنها دقائق ، والساعات كأنها أيام !

ذلك الظلامُ كانَ كجبلٍ جاثمٍ على صدري لا يزيحه إلا ردٌ منكِ على ما قد أرسلته إليكِ .

قبل ساعةٍ كاملةٍ من المحاضرة ، كنتُ أقفُ أمام المدرجِ بانتظاركِ .

كلُّ لحظةٍ كانت تمر ، كنت أشعر وكأنك تأخرتِ عليَّ بها عاماً .

بالرغمِ من أنَّهُ لم يكن بيننا موعد ، ولم يكن أحدٌ من الطلابِ قد حضرَ سوى أولئك الذين يتحاربون للجلوس في المقعد الأول .

بعد انتظارِ أربعين دقيقة حسب توقيت الساعة ، وألف عامٍ بتوقيت قلبي ،رأيتكِ قادمةً نحوي كملاكٍ لا كبشر ، شروقٌ

واضحٌ يلمع في عينيكِ تحاولين جاهدةً إخفائه ، وابتسامةٌ لطيفةٌ ترسم براءة الأطفال في وجهك المشرق !

- صباح الخير
- صباح النور ، أظنُّكِ وصلتِ متأخرة !
- أظنُّكَ جئتَ باكراً !
- سأجلبُ فنجانين من القهوة ، انتظريني هنا .
- حسناً ، هات عنك كتبك .

استدرتُ ومشيت ، ونارُ قلبي تستعرُ لظاها .

لماذا لم تتحدث في الموضوع !! لماذا لم تبدي رأياً !

أتراها لم تقرأ الورقة ، أتراها لم ترها ! .

أكثر من ألف سؤال تشابكَ في عقلي الذي لم يهدأ منذ ليلة البارحة !

لم أدري هل يجب أن أبادركِ بالسؤال عن الرسالة ، أم أتركلكِ كما أنتِ !؟

ربما اختارت الصمتَ وسيلةً للرد ، وربما لن تردَّ أبداً .

أحضرتُ فنجانين من القهوة ، ودخلنا سوياً إلى المدرج .

كانت محاضرةً في مادة الفيزيولوجيا ، تتحدثُ عن الكلية وأمراضها ، والكلُّ منشغلٌ بما يقولهُ البروفيسور المحاضر، وأنا شاردُ الذهنِ أفكرُ بما يجب عليَّ فعله !

عندما خرجنا من المحاضرة ، كانَ لابُدَّ أن أستفسرَ منكِ عن الموضوع ، لكن إحساساً غريباً بداخلي دفعني للصمت، طالما أنَّكِ لم تتحدثي عن الموضوع ، فالأفضلُ أن أصمت.

أخذتكِ صديقتكِ إلى مخبر التشريح ، ومضيتُ إلى مخبر النسجِ وحدي ، حزيناً لا ألوي على شيء .

لقد شعرتُ بأنني خسرتُ شيئاً ، خسرتُ أملاً ، خسرتُ قلباً، ولربما خسرتكِ !

إحساسٌ بالحزنِ بدأ يخيّمُ على قلبي .

عندما خرجتُ من المخبر ، وبينما كنتُ شاردَ الذهن أفكرُ فيما جرى ، اصطدمتُ بخزانةٍ موجودةٍ على طرفِ الجدار، سقطت دفاتري ، وطارت ورقةٌ صغيرةٌ من دفتري لم أرها من قبل !

حين فتحتها ، شعرتُ بدلوٍ مليءٍ بماءٍ باردٍ سُكبَ على رأسي، هذا هو خطُّكِ الجميل بعينه ! لست أحلم ، ولست أتوهم !! .

قرأتُ بقلبي قبل عيني :

أما بعد :

كل شيءٍ ينتظرُ وقته ، لا وردةٌ تتفتحُ قبلَ وقتها ، ولا شمسٌ تشرقُ قبل وقتها ، انتظرْ الذي لك سيأتيك .

جلال الدين الرومي

لقد كنتِ أكثرَ خجلاً من أن تكتبي رسالةً حرفيةً عنكِ ، وذكيةً بما يكفي لتختاري اقتباساً مناسباً لا يمكنُ أن يلفتَ نظرَ أي شخصٍ يمكن أن تسقطَ الرسالة في يده !

لم تحملني قدماي وأنا أحمل رسالةً منك بين يدي ! جلستُ وكأن عرساً من الفرح قد أقيمَ في قلبي للتو !!

نعم يا شمس ، بالتأكيد سأنتظر وقت شروقك ، سأنتظره لحظةً بعد لحظة !

استعرت نار الحبِ في قلبي الطائش ، ولم يستطع عقلي على رجاحتهِ من السيطرةِ على جموحِ قلبي !

سأعترفُ بحبي وليحصل ما يحصل !

بحثت عنكِ أمامَ كلِّ المخابرِ ، وفي كل الممرات ، وبين كل الأشجار .

وجدت صديقتك ، وكالمجنون سألتها عنكِ ، فقالت لي بأنك ذهبت للمنزل .

ركضت مسرعاً باتجاه منزلك ، وقبل أن أصل ، استطاع عقلي " ولحسن حظي " أن يسيطر على جسدي . انحنيت ألتقط أنفاسي وأنا أفكرُ في خطةٍ أوصلُ لكِ رسالةً من خلالها بدون أن يشعر أهلك ، فكرتُ مطولاً بعقلي لا بقلبي هذه المرة ، واهتديت إلى الحل !

اشتريتُ كتابَ " قواعدِ العشق الأربعون " الذي يتحدثُ عن قصة جلال الدين الرومي وصديقه شمس ، وطرقت باب منزلك والخوف يهزُ مفاصلي هزاً ، كنت أعلم مسبقاً بأنَّ

أمك ليست من النوع الذي يقرأ الروايات ، وأعلم أيضاً بأنكِ تتنفسين القراءة والكتب .

- أهلاً يا بني ، تفضل . "قالت أمك بنظرة تساؤل"
- مساء الخير سيدتي
- مساء النور
- لقد اشتركت ابنتك الآنسة شمس منذ يومين في مسابقةٍ في مكتبتنا المفتتحة حديثاً ، وفازت بهذا الكتاب ، أتمنى أن توصليه لها .
- حسناً ، شكراً لك يا بني .

أدرتُ ظهري ومشيتُ ، وأنا لا أعلمُ إن كانَ عليَّ الهربُ مسرعاً ، أم أن أرقص في الشارع من شدة الفرح !

لقد كانت مغامرةً جريئةً جداً ، ولكن مثلكِ يستحقُ أن أغامر بروحي لأجله !.

- هذا الكتابُ هديةٌ لكِ يا شمس ، نتيجة اشتراككِ في المسابقة .
- أيُّ مسابقةٍ يا أمي ؟!

- لا أعلم ، هكذا قال الشاب ورحل .

أخذتِ الكتاب من والدتكِ و عدتِ إلى غرفتك مستغربة الأمر !

حين فتحتِ الكتاب ، كان كل شيء قد أصبحَ واضحاً بالنسبة لكِ !

سقطتِ على سريركِ مندهشةً تقرئين رسالتي التي كتبتها على أول صفحةٍ من الكتاب :

"يقرئكِ جلال الدين الروميُ السلام ، ويودُّ إعلامكِ بأنَّ بلال سينتظر شروق الشمسِ على أحرَّ من الجمر! "

أدركُ يا شمس حالة الصدمة التي كنتِ تعيشينها في تلك اللحظة ، مزيجٌ من الدهشةِ والفرحِ والخجلِ يشتعل في قلبك، كم كنتُ تواقاً لرؤية حمرة خديكِ تبلغُ ذروتها ، و دمعُ عيناكِ يتساقط خجلاً .

كنتِ ذكيةً بما يكفي لتعلمي بأن الأمورَ أصبحت مكشوفةً الآن ، لم يعد هناكَ مجال للمواراة والاختباء ، وبأنَّ لحظةَ الاعتراف باتت قريبةً ، وبأنكِ حينها ستكونين على مفترقِ طريقين لا ثالثَ لهما .

كنتُ أعلم بدوري بأنني أقفُ على الحافة بين الجنة و الجحيم، وأن الوقتَ قد حانَ لأكشف حبي أمامكِ علانيةً ، وأفتحَ كل أبواب قلبي لكِ .

لذلك حاولتِ أن تتهربي في صباحِ اليوم التالي ، حين انتظرتك أمامَ باب المدرج .

دخلت مع صديقتكِ أمل بدون حتى أن تلقي تحية الصباح !

حين انتهت المحاضرة ، وبعدَ بحثٍ طويلٍ وجدتكِ تقفين على الشباكِ المطلِ على الفسحة الواسعة تتأملين قوس قزحٍ ظهر بين الغيم بعد هزيمة المطر وانتصار الشمس ، حين شعرتِ بوجودي التفتِ إليَّ وارتباكٌ واضحٌ في عينيك .

دام الصمتُ لأكثر من دقيقة وعيوننا تتبادلُ الكلامَ صمتاً ، حينها صمتت كل حواسي ونطق قلبي :

- أُحِبُكِ يا شمس .

كان لتلك الكلمة أثراً صاعقاً عليكِ وإن كنتِ تتوقعينها ، وضعتِ يدكِ على فمكِ خجلةً ، وحباتُ اللؤلؤ بدأت تتشكل في عينيكِ ، لم يبدو عليكِ أنَّكِ تريدين الهرب ، وهذا ماكنتُ أريده بالضبط ، كان على الأمرِ أن يحسم في تلك اللحظة ، جحيمٌ أو جنة ! .

التفتِ مجدداً إلى قوس القزح ، وبعد فترة وجيزةٍ من الانتظار ، اطلقت عليَّ سؤالكِ الذي كان يؤرق نومكِ في الليالي الأخيرة الباردة :

ما الذي يضمن لي صدقك وصدق عواطفك ؟؟ ألا يحتمل أن تكون كباقي عواطف المراهقين المتبدلة التي لا تلبث ان تولد حتى تموت؟!

أطلقتُ ابتسامة صغيرة ، حيثُ كنتُ أتوقع هذا السؤال وأنتظره ، بدا عليَّ الهدوء أكثر من ذي قبل ، أطلقتُ نظري إلى الأفق أبحث عن قوس القزح الذي كنتِ تنظرين إليه، أجبتكِ بثقة من استعد لهذا الموقف وتناقش فيه مع ذاته آلاف المرات من قبل :

إنَّ الرجل المؤمن الذي يعبد الله ، يستيقظ في منتصف الليل ليصلي ويقرأ قرآن الفجر ، ويقضي كلَّ عمره متلهفاً ينتظر رؤية ما وعده ربه به "الجنة" ، إنَّ الهوى إن كان نقياً ، يدفع صاحبه ليقضي عمره منتظراً وصول قلبه إلى ما يحب، تماماً كذلك الحلم الذي يراودُ الإنسان ويسعى جاهداً لبلوغه ، ما إن يصل إليه سيكون حريصاً كل الحرص في الحفاظ عليه ، إنَّ الرجل الذي يرى الهوى حمامة طاهرة ، يحاول ان يتمسكَ بجناحيها ليصل إلى أعلى درجات العفة والطهر ، أولئك المتسللون إلى شوارعِ الحب النقية ، هم وحدهم من يدنس أجنحة تلك الحمامة البريئة !.

حينها التفتُ إليكِ فوجدتكِ قد أسلمت نظركِ من جديد إلى قوس القزح ، فتابعت ماكنتُ قد بدأته من حديث:

يستطيع الانسان تقديم ضماناتٍ لكل شيء إلا المشاعر ، الأفعالُ وحدها هي من تثبتُ كلَّ شيء ، وهي من تؤكد كل شيء .

كنتُ قادراً حينها أن أفهم النار المتأججة بداخلكِ حتى بدون أن تتكلمي ، كانَ نظرُ عينيكِ المتعلق بقوس القزح قادراً على البوحِ بكلِّ شيء .

مشيتُ خطوتين إلى الأمام وبدون أن ألتفتَ إليكِ ودعتكِ قائلاً :

- سيجدني قلبكِ عندما يريد .

عدتُ إلى المنزل وأنا مرتاحٌ لما حصل ، على الأقل يجب أن توضع النقاط على الحروف ، قبل أن تتحول الحروف لجملٍ لا يمكن قراءتها فيما بعد !!

في الطريق زرتُ قبر أمي ، وأخبرتها بما حصل معي كعادتي في كلِّ يوم ، ثم ذهبت إلى العمل .

في اليوم التالي ، وأمام المدرج ، كنتِ تنتظرين هناك ، وحين وصلت بادرتني قائلةً :

- أخبر جلال الدين الرومي بأنَّ الشمس قد أشرقت ! .

-4-

في حينِ كانَ لكلِّ سنةٍ ربيعٌ تزهر فيه ورودها ، وتخضرُّ دروبها ، كانت تلك الأيام من عمري بمثابة الربيع ، وكنت أنتِ الزهرة فيها والريحانة ، والياسمينة .

كان كافياً بالنسبةِ لي أن أنظرَ في عينيكِ لحظةً لأنسى كل حزن الحياة ، وتعب العمل ، ومرارة اليتم .

لقد كنتِ أمي بعدَ أن فقدتُ أمي ، وأبي بعد موت أبي ، وحبيبتي ، وشمسي وكل شيء .

أتذكرينَ ذلك الموقفِ يا شمس ؟

حين خرجتِ غاضبةً من امتحان عملي التشريح ، بعد أن قدمتِ امتحاناً سيئاً للغاية .

كنتُ أنتظركِ خارج المخبر بعد أن انتصرت عليَّ أسئلة الامتحان أنا الآخر !

حين وصلتِ إليَّ كان دمع عينيكِ يكاد يتفجر ، ولكنك كنتِ تحبسينه غصباً .

- يبدو أن الأسئلة كانت صعبةً كما كانَ متوقعاً ؟!
" قلتُها وابتسامةٌ صغيرةٌ رسمتها على شفتيَّ كي أغيظكِ "
- يبدو أنك سعيدٌ بذلك ؟!
- وهل يمكن أن يسعدني أمرٌ يدمعُ عينيك ؟!!
- وما تلكَ الابتسامة إذاً ؟!
- تلكَ ابتسامةُ المنتصر ، على الأقل أصبحنا متعادلين الآن ! كلانا قدم أسوء ما لديه في هذا الامتحان !.
- كلُّ الرجال هكذا ، تريدوننا أن نفشل لكي تكونوا أفضل منا !!
- أما أمرُ الرجالِ الآخرين فلا أعلمه ، ولكنني أعلمُ أمرَ نفسي ، أعلم بأنني أريدكِ أن تكوني ناجحةً في كل شيء ، ومميزة في كل أمر ، وفي كل مكان ، في قلبي ، وفي العلم ، وفي الحياة ، أريدكِ أن تكوني في القمةِ دائماً .

لا تصدقي يا شمس بأنَّ رجلاً أحبَّ امرأةً ويريدها أن تفشل ، ذلك لا يكون إلا في موضعين : إما أن الرجلَّ لم يحب تلك المرأة أساساً ، أو أن ذلكَ الرجل يمتلكُ عقدةَ نقصٍ ، ويريدُ أن تكونَ تلك الفتاة ضعيفةً فاشلةً مثله كي يرضي فشله .

أما أنا وقد ملأتُ عقلي وقلبي بكِ ، فإني أريدُ أن نصل لأحلامنا سوياً ، وأن نحقق أهدافنا ، هدفاً تلو الآخر معاً ، وإن ساقَ القدرُ يوماً عثرةً إلى طريقي ، ولم أستطع أن أكمل هذا الطريق ، فإني أريدُ منكِ أن تمنحيني وعداً بأن تكملي هذا الطريق وحدك يا شمس، على الأقل يكون جزءٌ من روحي قد حصلَ على ما يحب في هذه الدنيا .

- سنكملُ هذا الطريق معاً يا بلال ، وسنصلُ معاً ، طريقٌ لا تشاركني فيه صخوره وأشواكه وانتصاره لا أريده . إما أن نكمل معاً هذا الطريق ، أو سأسلكُ معك أي طريقٍ يرسلك فيه القدر .

كثيرةٌ تلك المواقف التي كانَ عقلي يعجب فيها بكِ أكثرَ من قلبي ، لم نكن مجردَ عاشقين يتبادلانِ كلامَ الحب والورودِ والبطاقات الحمراء ، كان لأحاديثِ العقل مجالٌ واسعٌ في لقاءاتنا المفعمةِ بالحب .

أما تذكرين يا شمس حينَ كنا جالسينِ على كرسينا المعتادِ في ظلِ شجرةِ الصنوبر الكبيرة ، قلتِ لي حينها :

- أتعتقدُ يا بلال بأننا قادران على الوصولِ لأحلامنا الكبيرة ؟
- أؤمن يا شمس بأن هذه الحياة ماهي إلا حربٌ كبيرة، ينتصرُ بها من لديهِ همةٌ وعزيمةٌ وإصرار ، تماماً كما قال أحدهم :

وما نيلُ المطالبِ بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

لا يكفي بأن يكونَ لنا أحلام ، ولكن يجب أن نسعى لتحقيقها، الأسباب يا شمس تجري على البشر ، ولكن لا تجري على الله ، الله عز وجل قادرٌ أن يغيرَ الأسبابَ لكي نصلُ إلى أهدافنا إذا رأى إصراراً منا ، وعملاً يرافقه الدعاء ، وحينها لا يرد الله دعاءنا إلا باستجابته .

- ولكن ألا ترى بأن سقفَ أحلامنا مرتفعٌ قليلاً ؟!
- على العكس تماماً يا شمس ، حين يكون جلُّ طموحكِ أن تحصلي على علبةِ حلوى ، فإنكِ ستخرجين في النهايةِ بقطعةِ حلوى واحدة ، وربما لن تحصلي على شيء ، ولكنكِ حين تطمحينَ بمصنعٍ كاملٍ للحلوى ، لن تخرجي من المعركة بأقلَّ من متجرٍ كبيرٍ لها .

- أراكَ تصرُّ على تسميةِ الحياةِ بالحرب ، ألا تبالغُ في ذلك قليلاً ؟!
- حياةٌ خسرتُ فيها أبي قبل أن أراه ، وخسرتُ أمي وأنا في أوجِ حاجتي لضمةِ حنانٍ منها ، ما عسايَّ أن أسميها ؟!

حياةٌ أقضي نهارها أحارب لتحصيل العلم ، وليلها لتحصيلِ الرغيف ، ماذا تريدين أن أسميها ؟!

هذه الحياةُ حربٌ يا شمس وأنت انتصاري الوحيد فيها.

وبقدرِ ما كانَ للعقلِ حيّزٌ من أحاديثنا ، كان للجنونِ حيزه الخاص يا شمس ، كان للجنونِ معكِ طعمٌ آخر ، كيف لا يجنُّ من يراكِ مبتسمةٌ أمامه !!

في ذلكَ الصباح ، كنتُ أنتظركِ أمامَ المدرجِ كعادتي .

حينَ دخلنا إلى المدرجِ ، كانت صديقتكِ بانتظاركِ داخلاً ، ذهبتِ إليها ، وجلستُ أنا وحدي أتأملك من بعيد .

كان شروقكِ في ذلكَ الصباحِ غير عادي أبداً ! شيءٌ ما كان يضيئ في عينيكِ لم أكنْ قد لاحظتهُ من قبل !

ولشغفي بكِ وبالكتابة ، أخرجتُ ورقةً كتبتُ عليها ما كان يجول بخاطري حينها .

وحين انتهت المحاضرة ، تبعتكِ أنتِ وصديقتكِ ، وأعطيتكِ ورقةً اخترعتُ كذبةً بأنها قد سقطت منكِ في المدرجِ منذُ قليل .

وقفتُ من بعيدٍ أتأملُ ملامحكِ ، وأنت تقرئين الرسالة ، أحمر خديّكِ ازدادَ توهجاً وخجلاً ، اتساعُ عيناكِ أصبحَ كالوردة حين تتفتحُ صباحاً ، كنتِ أنتِ تقرئين من الورقة ، وأنا أرددُ في قلبي ما كتبته للتو :

حين كنتُ طفلاً ، كنت أذهب كلَّ صباحٍ لأرى وردة الجوري التي ينبثق عنها في كل يومٍ فرع صغير جميل يتميز بلونه عن ما قد سبقه ، فأندهش وأفرح وأبقى شغوفاً لليوم التالي بانتظار الدهشة القادمة .

كبرت وأصبحتِ أنتِ وردتي الجورية ، أركض في كل يومٍ لأراكِ تدهشيني كل مرةٍ أضعاف ما أتوقع ..

تتأنقين فتشرق الشمس ، تتكلمين فتغارُ اللغة من الكلمات ، تضحكين فيسقط قلبي بين يديكِ قتيلاً !

كيف أقول لك بأنك كنت أنيقة هذا الصباح ، و الياسمين يسرق من بهائك حين يتأنق !

وكيف أقول بأنك كنت جميلة ، والقمر يأخذ جماله من كحل عينيك !!

أتساءل كيف لمرآة غرفتك أن تحتمل نورك حين يطل عليها ولا تتكسر كما يحدث مع قلبي حين تطلين عليه !

أتدرين ..؟

غبيٌ ذلك العطر ، يظنُّ بأن رائحته عطرة ، لا يعلم بأن رائحته لا تصبح شهية إلا حين تلامس ثيابك .

أحسدُ ذلك العطر ، وأحسد ذلك العقدُ الأصفر الذي تضعينه على معصم يدك اليمنى ، كم أشتهي أن تكون روحي مكانه، تلفينها على معصمك كما تشائين .!

أتعرفين أمراً يا فتاة ..؟

أصبحتُ بقدر شوقي إليكِ ، أتلهفُ كلَّ مرة لأعرف كيف ستدهشينني في المرة القادمة !! .

أعتقد بأن هذه التفاصيل ما كانت لتغيب عن بالك لحظة يا شمس ، كنتِ مهتمةً بالتفاصيل كثيراً ، راغبةً بأن تعرفي عني كل شيء.

سألتني مرةً حين كنّا في الشارع الذي شهد أغلب لقاءاتنا حين كنا نخرج من الجامعة ، سألتني عن قصة حياتي ، ولماذا لا أملك عائلةً كباقي الأناس الآخرين؟!

أجبتكِ حينها بأنها قصةٌ طويلةٌ لا أرغب بأن أزعجكِ بها.

لكنّكِ كعادتك كنتِ مصرّةً على سماعها، وأنا لا أملك أمام هذا الإصرار إلا الانصياع ، قلت لك حينها:

- اسمعي يا شمس، هذه قصةٌ طويلةٌ ، لكنني لن أملَّ من سردها لك بشرط ألا يعلق منها في قلبك ما يحزنك .

قبل عشرين عاماً من الأن ، تعرَّفت أمي على والدي أحمد، كانت أمي حينها طالبة في المدرسة الثانوية ، وكان والدي فلاحاً يعمل في الأرض.

التقيا صدفة في أحد شوارع القرية ، وشاء القدر أن تشتعل نار الحب بينهما ، ولسوء حظهما وحظي ، كان بين عائلة أمي وعائلة أبي ثأرٌ قديمٌ وأحقادٌ دفينةٌ ، فقد قتلَ أحد أجداد أبي أحد افراد عائلة جدي لأمي ، وفرّ هارباً حينها من

القرية ولم يستطع أحد اللحاق به والأخذ بالثأر، الأمر الذي أبقى الجمر ملتهباً في نفوس أهل القتيل.

وكان حب أبي وأمي بمثابة الريح التي حركت الجمر وأضرمت النار.

لم توافق عائلة أبي ولا عائلة أمي على زواجهما ، وحاولا بكل الطرق التي تبدأ بالكلام الجارح ولا تنتهي بالضرب لإبعادهما عن بعضهما ، وقلت لك بأنها لا تنتهي لأن جدي قد أمعن في إبعاد والدي عن أمي ، فأبعده عن داره وعن العمل بأرضه . وكذلك فعل جدي الآخر ، حيثُ منعَ أمي من الذهاب إلى المدرسة كي لا تلتقي بأبي .

ولكنَ حبهما كما يبدو كانَ أكبرَ من ظلمِ أجدادي ، وأكثرَ صلابةً من رأسهم العنيد .

هربت أمي مع أبي في ليلةٍ مظلمةٍ في مغامرةٍ تحتاجُ قصةً مطوّلةً لوحدها ، وحينَ لم يجدوا من يستضيفهم في الريف، هربوا إلى المدينة .

حيث تزوجا في المحكمة ، لأن والدتي كانت قد أتمت الثامنة عشر في حينها . استأجرَ والدي بيتاً سكنَ فيه مع أمي ، ووجد عملاً بسيطاً أمَّن من خلالهِ قوتهِ وقوتِ أمي .

وبالطبع ، بحث أهل أمي عنهما كثيراً ، ولم يوفروا جهداً للوصول إليهما ، بحثوا في كلِّ مكان ، وشاءت الأقدارُ أن يعثروا عليهما بعد أربعةِ أشهرٍ من زواجها ، حينها كانت أمي حاملٌ بي في شهرها الأول .

حينَ عثروا عليهم ، كانت الساعة الثالثة فجراً ، طرقٌ عنيفٌ على الباب ، اختبأت أمي وراء ظهر أبي ، علموا حينها بأنَّ الموتَ واقفٌ خلفَ البابِ وماهي إلا مسألةُ وقت !.

كُسِرَ البابُ ، ودخلَ جدي وأولاده الثلاثة .

انهالوا على أمي وأبي ضرباً بالأقدامِ والأرجلِ والعصي وكلَّ شيءٍ يمكنُ أن يحدثَ فيهما أذى ، ضربوهما بحقدٍ عمره عشرات السنين .

أذكرُ أنَّكِ قاطعتني حينها يا شمس ، وقلتِ لي مستغربةً والدمعُ يسيلُ برفقٍ من عينيكِ :

- هل يمكنُ أن يكونَ هناك أهلٌ بهذه الهمجيةِ والقسوة؟!
- نعم يا شمس ، هناكَ الكثيرُ منهم للأسف ، حينَ يجتمعُ الحقد و الكره مع الكبرياء ، تتولد قسوةٌ كهذه وأكثر.

ربما لو أحبَّت أمي رجلاً غير أبي لزوجها جدي إياه عن كلِّ رضا ، ولو أحبَّ أبي فتاةً غير أمي لفرشَ جدي طريقَ عرسهِ ورداً .
ولكنهُ القدر ! جمع قلب أمي وأبي في الوقت الذي كانت العاداتُ والأحقادُ تحكمُ بأن يتفرقا إلى الأبد !.

- ألا تكملُ لي يا بلال ما حصل؟
- سمعاً وحباً .

اقتاد اثنانِ من أولاد جدي ، أبي إلى خارجِ المنزل ، قيلَ لأمي بعدها أنهم قتلوه ودفنوا جثته بعيداً .
أترين يا شمس ؟! حتى أنهم لم يرتضوا بأن يخبرونا بمكانِ قبره !! أبعدَ هذه القسوة قسوة ؟! أو بعد هذا البغض بغض!؟

أما أمي ، فقد بقي عندها جدي وأخاها الأصغر الذي هو أرحم أولاد جدي ، استلَّ جدي خنجره ووضعهُ على عنقِ أمي لكي يغسلَ عاره كما يظن ، وقبلَ أن ينفذَ جريمته ، صاحت أمي بأنها حاملٌ بي ، فأمسكَ أخاها يدَ جدي ومنعهُ من قتلِ أمي .

أتعلمينَ أمراً ، كنت أحياناً أقولُ لو أن جدي قتلَ أمي حينها ، على الأقل كنت متُ معها ودفنتُ معها في قبرٍ واحدٍ ولم أرى هذه الدنيا البائسة !

- والآن بعد أن التقيت بي يا بلال ، أما زلتَ تقولُ هذا؟!

- الآن أودُ لو أقبل يد أبي لأنه تزوج أمي قسراً عن أهلها ، وأنجبني لكي ألتقي بكِ !

أخذَ بعدها جدي أمي إلى بيتٍ له في المدينة ، هو ذات البيت الذي أسكنُ فيهِ الآن ، وأقسمَ بكلِّ ما يؤمن به ألَّا يزور أحدٌ من أهلِ أمي بيتها ، وأن لا تدخل أمي بيت أهلها إلا جثةً هامدةً .

وأشاعَ الخبر في كلِّ القرية بأنه قتل أبي وأمي وغسل عاره، حتى أهل أبي حين علموا فيما بعد أن زوجة ابنهم مازالت على قيد الحياة ، لم يرضوا أن يزوروها ، أو يساعدوا المرأة التي سرقت ابنهم منهم على حدِ تعبيرهم !.

لكِ يا شمس أن تتخيلي كيفَ لفتاةٍ لم تبلغ العشرين ، تحملُ في جوفها طفلٌ لم يبلغ الثلاثة أشهر ، أن تقاومَ بمفردها مشاق الحياة .

أن تعملَ لتسدَ رمقها و رمقَ ابنها فيما بعد .

حين ضاقت الحياةُ في وجهِ أمي ، اضطرَّت للعملِ خادمةً في البيوت ، تطبخُ وتنظف لهم .

هذا كله لا شيء إذا ما قورنَ بالأذى الذي كانَ يطولها من ألسنةِ المجتمعِ المسلطةِ كالسيوف على فتاةٍ عزلاء ، ومن عقوله المريضة ، ومن نواياه الخبيثة .

أتصدِّقي يا شمس بأن الجيران امتنعوا عن الحديث مع أمي وزيارتها لمجردِ معرفتهم بالحكايةِ التي جرت ، وأنَّ بعضهم حاول أن يخرجَ أمي من المنزل " كي لا تفسدَ عقول بناتهم "

- أيعقلُ أننا متحجرونَ إلى هذا الحد ! بدلَ أن يساعدوا أمكَ ويقفوا إلى جانبها ، يريدون إخراجها من المنزل!!؟
- في كلِ مجتمعٍ هناك أفكارٌ ومعتقداتٌ وأساليب حياة متأصلة في عمقِ أفكار الافراد ، ومن الصعبِ جداً التخلي عنها أو تجاوزها .

في مجتمعنا مثلاً ، أحدُ تلكَ الافكارِ هي أن الفتاة التي تخرج عن طاعةِ أهلها وتغضبهم لأجلِ زواجٍ أو غيرَ ذلك ، هي فتاة غيرَ جيدة ومنبوذة إلى حدٍ ما في المجتمع .
إن أردت الحقيقة ، أنا لا ألومهم في ذلك كمبدأ ، أنا من أنصارِ أن تبقى الفتاةُ في طاعةِ والدها ، حتى وإن أدى ذلك إلى منع زواجها بمن تحب ، لكن ما المانع في أن نتواصل مع تلكَ الفتاة ، ونفهم منها أكثر ، أن نتعرفَ أخلاقها أكثر ، ربما كانت تلكَ الفتاةُ مستضعفةٌ ومقرَّةٌ بخطئها ، ولديها من الأخلاقِ ما يكفي لتكونَ جارةً صالحةً وسيدةً نقية .

- وهل بقي جيرانكم على حالتهم هذه ؟!

- نعم ولكن ليسَ لمدةٍ طويلة ، الفضولُ والحنانُ من طبائعِ النساء ، وأمرٌ متداخلٌ في عمقِ نفوسهنَ .
لتلكَ الأسباب أو لغيرها ، بدأت إحدى الجارات و يقالُ لها أم سعد تتسللُ إلى حياةِ أمي ببطء .

أحضرت ذاتَ مرةٍ طبقَ حساءٍ لأمي و استأذنتها بالدخول، وكالغريق الذي يتعلقُ بقشةٍ استضافتها أمي بحفاوة .

صُدمت المرأة من هولِ ما رأت من الفقرِ المخيِّم على البيت الذي لا يشبه إلا خمَّ الدجاجِ إن صحَ التعبير .

وكعادةِ النساءِ حين تجمعهنَّ مصيبةٌ أو حزن ، بكت أم سعدٍ وأمي سوياً حتى قبل أن تتحدثا حرفاً واحداً ، تلكَ العاطفة الفريدة الموجودةُ في كل النساء !

رأت أم سعدٍ ما تعانيهِ أمي من الفقرِ والحاجةِ والوحدةِ فبكت، بكت بعاطفةِ الأمومة ، وعاطفةِ الأخوة ، وعاطفةِ الأنوثة .

وحينَ ارتوى ظمأ الدموعِ فيهن ، سردت أمي لأمِّ سعدٍ حكايتها ، بَكَت أمُّ سعدٍ كثيراً حين علمت بمقتلِ أبي ، وحينَ علمت بأنَّ جدي قد أقسمَ ألَّا يدخلَ بيتنا أحدٌ من أهلِ أمي . وعدت أمُّ سعدٍ أمي أن تجد لها عملاً مناسباً وخاصةً أنني كنتُ قد بلغتُ الشهرَ السابعَ في بطنِ أمي .

- وهل فعلاً ساعدت أمُّ سعدٍ أمَّكَ يا بلال ؟
- نعم ، ولكنني سأتركُ هذا الحديث إلى لقاءٍ آخر ، فلقد تأخرتِ اليومَ على بيتكِ .

- إنَّ عقاربَ الساعةِ تدورُ مسرعةً حين نكون معاً !!
- لعلَّ الشمس تغارُ منا فتسرعُ في غيابها يا شمس !

-5-

في ذلِكَ اليوم ، كانتِ المرة الأولى التي تبدين فيها مشاعرَكِ بتلكَ الطريقة القوية ، اعتدتُ في السابقِ على خجلكِ وتعففكِ، حتى إنني لم أسمع منكِ كلمةَ أحبكَ من قبل ، وكنتُ راضياً بهذا ، لم يهمني أبداً أن أسمعها بقدَرِ ما يهمني أن أراها واضحةً في أفعالكِ وحيائكِ ، لم أكن من أولئكَ الذين يكثرونَ من كلامِ الحبِ ولا يحبون إلا قليلاً ! .

أؤمن يا شمس بأنَ الحبَ الحقيقي كثيرٌ من الأفعال ، قليلٌ من الكلام .

الخوفُ على الحبيبِ من كلامِ الناس حب ، والحرصُ على سمعةِ المحبوبِ حبٌ لا يدانيهِ شعرٌ لقيس ولا قصيدةٌ لنزار!.

ربما يمضي عامٌ كاملٌ لا أكلمكِ فيه كلمةً ، وأنا واثقٌ بأنني أحبكِ أكثرَ من أولئكَ الذين يمضون جلَّ وقتهم سوياً !

بدلَ أن أرسلَ لكِ رسالةً في كلِّ يومٍ أقولُ لكِ فيها بأني أحبكِ، أجلسُ دبرَ كلِ صلاةٍ أدعو لكِ .

تلكَ طريقتي في الحبِ يا شمس ، وأعلمُ بأنّكِ تفضلينها .

أعودُ بكِ يا شمس إلى ذلكَ الموقفِ الذي ابتدأتُ بهِ آنفاً ، كنتُ خارجاً حينها من مخبرِ النسج بعد جلسةٍ دامت أكثَرَ من ساعةٍ ونصف ، شعرتُ بأنها قد امتدت لدهرٍ كامل .

وبينما كنتُ أسيرُ باتجاهِ الباب الرئيسي للكلية أريدُ الذهابَ إلى عملي الذي كنتُ متأخراً عنه ، استوقفتني زميلةٌ ، أقسمتُ لكِ لاحقاً بأنني لا أعرفها من قبل ، بدأت تسألني عن أمورٍ بدا لي أنهُ ما من حاجةٍ للسؤالِ عنها!

أمورٌ متعلقةٌ بالمحاضراتِ وجلساتِ العملي ، وما إلى ذلكَ من الأمورِ الدراسية ، وكنتُ أجيبها بأسلوبٍ محترمٍ ما كان يستدعي أبداً موجات الضحك التي كانت تنتابها بعد كل جواب ! .

وفي خضمِ ذلكَ الموقفِ الذي كنتُ أحاولُ جاهداً التخلصَ منه ، دخلتِ أنتِ من الباب الرئيسي ، ووقفتِ مدهوشةً أمامَ ذلكَ المشهدِ بطريقةٍ جعلتني أبدو كخائنٍ حين التقت عيناي بعينيكِ !

حينها استدرتِ وخرجتِ مسرعةً من البابِ الرئيسي للكلية كمن يهربُ من خيانةٍ ماثلةٍ أمام عينيهِ لا يريد أن يراها ! .

اعتذرتُ من تلكَ الزميلة وتبعتكِ مسرعاً حتى أبررَ لكِ تلكَ الخيانة التي اقترفتها يداي !

حاولتُ جاهداً أن أوقفكِ ، ولكن يبدو بأن الموقف كان صادماً لدرجةٍ منعتكِ من التوقف بالرغم من كل المناداة التي أظنُ بأنَّ كلَ من كان في الجوارِ قد سمعها ! وحينَ أصررتِ على المضي قُدُماً ، أسرعتُ قليلاً ووقفتُ أمامكِ، فتوقفتِ ولله الحمد !

- ما بكِ يا شمس !
- لا شيء ، دعني وشأني .
- لستُ غبياً لتقنعيني بكلمة لا شيء ، ثم إنني لن أدعكِ وشأنكِ طالما أنكِ غاضبة !
- لماذا تركتها لوحدها ! اذهب إليها .

لم أتمالكَ نفسي حينها ، وأطلقتُ ضحكةً عاليةً يبدو أنها استفزتكِ مما دفعكِ للسيرِ مجدداً فأوقفتكِ مرةً أخرى .

- حقاً تظنين بأنني يمكنُ أن أحبَّ فتاةً سواكِ ؟!!
- ولمَ لا ؟! وقد رأيتُ ذلكَ بأم عيني منذُ قليل !
- لقد كانَ موقفاً عادياً لا لبسَ فيه ! ثمَّ إنكِ تعلمين بأنني لا أحبُ سواكِ !!

- لكنني أغارُ يا بلال !!

" قلتيها والدمعُ يسقطُ بحرارةٍ من عينيكِ ، الأمرُ الذي أشعلَ حريقاً في قلبي "

- أتبكين يا شمس ؟!
- ومالي لا أبكي ونار الغيرة تأكلُ قلبي !!
- ألهذا الحد تحبينني !!

" أعترف بأنني حاولتُ أن أستدرجكِ بهذا السؤال "

- أحبكَ فقط !! لا أعتقدُ بأنّهاَ كلمةً كافيةً لتعبرَ عمَّا بداخلي ، أنتَ الأملُ الوحيدُ الذي ينبضُ به قلبي يا بلال !
- وأنتِ الشمسُ الوحيدةُ التي ستشرقُ في حياتي يا شمس!
- عدني بذلك .
- ألا تثقين بي ؟!
- وهل تسمي غيرتي عليكَ قلة ثقة ؟!
- بل أسميها حباً نقياً ، أعدكِ بأنكِ أول وآخر شمسٍ ستشرق في قلبي ، والآن هل ترافقيني في طريقي إلى العمل ، فقد تأخرتُ ولا أعلمُ ما ينتظرني هناك !

مضينا معاً في الطريق ، وحينَ هدأت نارُ قلبكِ قليلاً قلتِ لي :

- أنا أحبكَ ، وأثقُ بك ، ولكن الغيرةَ طبعُ في كلِّ إنسان، ولا يمكن التخلي عنها ، فلا تجعلني أغارُ عليكَ كثيراً!

- أعلمُ بأن الغيرةَ أمرٌ طبيعيٌ موجودُ في كل البشر ومنذُ بدء الخليقة ، وهي في النساءِ أعظم منها في الرجال، وذلكَ بحكم رقتهن وأنوثتهن . يحكى يا شمس بأن آدم تأخر ذات ليلة ، فلمَّا أوى إلى سكنه بادرته حواء بالسؤال :

- أين كنت !

- كنتُ في بعض شأني . ثم أردف متسائلاً ولمَ السؤال! أتخافين من حواءٍ أخرى وما خلق الله على الأرض غيرك ؟

فتظاهرت حواء بالاقتناع ، وحين غطّ في نومه بدأت تتحسس أضلاعه وعدتها! .

لم يكن لدى حواء قلة ثقةٍ بآدم ، ولكنها طبائعُ النساء ، تخافُ أن يسرقَ أحدٌ قلبَ حبيبها وزوجها !

نحنُ نثقُ بمن نحب حين يعطينا وعوداً ، حينها لا يوجد داعٍ لسوء الظن ، ولكن لا بأس بالغيرةِ حينها ، فالغيرةُ في الحب شرٌ لابُدَّ منهُ ، كثيرهُ مهلك ، وقليله يميتُ المودة ، يجب أن تبقى بينَ بينْ ، بين الإفراطِ والتفريطْ ، أدنى من حدودِ قلةِ الثقة ، وأعلى من حدودِ قلةِ الاهتمام .

- أعتذر إن كنت قد أزعجتك بغيرتي !
- شكراً لغيرتك التي لولاها ما سمعت منك كلمة أحبك.
- لقد أوقعتني في الفخ إذآ ؟!!
- نعم لقد أوقعتك في فخ قلبي ، ولن تستطيعي الهروب منه أبداً !
- وأنا لن أحاول الهروب أبداً .
- هل يروقك الأسر يا شمس ؟!
- إن كنت أنت الآسر فلمَ لا!
- أنا الأسير بعينيك !
- وأنا السجَّان الذي لن يخرجك من عينيه أبدآ .
- ما الذي أتى بك إلى الكلية هذا اليوم ؟
- جئت أعطيكَ رسالةً كتبتها لك .

- يالحظي حين تكتب يداك عني !
- يالحظ قلبي حين يكتب عنك ! يتوجب علي المغادرة.
- وأنا شارفت على الوصول لعملي .
- إلى اللقاء . " استدرت ومشيت"
- شمس
- ماذا؟
- أحبك !

حينَ وصلتُ إلى المطعم ، كنتُ متأخراً بما يقارب الأربعين دقيقة ، وقد كانَ المدير " الأستاذ حامد " بانتظاري عند الباب .

والأستاذ حامد هذا إن كنتُ لم أصفهُ لكِ من قبل ، رجلٌ يجمعُ ما بين التسلطِ و العنجهيةِ من جهة ، وبين اللؤمِ والجشعِ من جهةٍ أخرى .

إنسانٌ يضعُ المال في المرتبة الأولى من أولوياته ، وتصطفُ باقي الأولويات متراكمةً فوقَ بعضها ، هذا إن كان لديه أولوياتٌ غير المال !

حينَ وصلتُ إليهِ كان كافياً بالنسبةِ لي أن أرى تقطب حاجبيهِ و عبوس وجهه ، حتى أعلمَ ما سيؤول إليه الحال ، إما أن يكونَ هناكَ خصمٌ سيحلُّ بمعاشي الذي كادَ أن يختفي من العقوباتِ المتتالية ، وإما أنه سيطردني من كل العملِ وبذلكَ أخسرُ معاشي الضعيف أساساً !

- كم الساعة الآن ؟!
- الرابعة والأربعونَ دقيقة .
- ومتى يبدأ عملُكَ عندي؟
- في الرابعةِ تماماً .

- وأنتَ تدركُ بأنها ليستِ المرة الأولى التي تتأخرُ فيها على عملك ، أليسَ كذلك ؟
- نعم أدرك ، لكنها ستكونُ الأخيرةُ بإذن الله .
- بالتأكيد ستكون الأخيرة ، لأنكَ لن تعودَ لعملكَ لديَّ مرةً أخرى .
- أستاذ حامد أنت تعلم بأنني طالبٌ جامعي ولدي مخابر عملي لا تنتهي قبل الرابعة !
- لا يهمُّ إن كنتُ أعلم أم لا ، عملي يجب أن يتمَّ على أكملِ وجه وبدونِ تأخيرٍ أبداً ، لذا لا عملَ لكَ لديَّ بعدَ اليوم ، عد لاحقاً لتأخذَ ما تبقى من معاشِك .
-

استدارَ الأستاذ حامد ودخلَ إلى المطعم ، واستدرتُ أنا لأواجهَ كلَّ مصاعبِ الحياة وهمومها بصدري .

أغمضتُ عينيَّ واستندتُ إلى الجدار ، شعرتُ بألمٍ يأكلُ صدري من الداخل لن يهدأ إلا بصرخةٍ تهتزُ لها المدينة !

كادَتْ دموعي أن تتساقط ، لولا أنَّي تماسكتُ أمامَ المارة ولم أشأ أن أظهرَ ضعفي أمامَ أحد .

همتُ على وجهي في شوارعِ المدينةِ الباردة ، كالغريب الذي لا أهلَ لهُ ولا وطن ، يغالبني البكاء ، فأغلبه تارةً ، ويغلبني تارةً أخرى .

فقدتُ للتوِّ مصدرَ رزقي الوحيد الذي كنتُ أعيشُ منه وأنفقُ على دراستي .

هِمتُ في تلكَ الشوارعِ لا ألوي على شيء ولا أشعرُ بشيء، لم أدري أين ذهبت ولا كيف ذهبت .

لكنني حين استفقت ، وجدتُ نفسي أحتضنُ قبرَ أمي ، وزخاتٌ من المطرِ بدأت تهطلُ رويداً رويداً .

لماذا تخليتِ عني يا أمي ورحلتي ! هذا العالمُ قاسٍ جداً من بعدكِ يا أمي وأنا أضعف من أن أحتمل ضرباته بمفردي ، عودي يا أمي فولدكِ الصغير طحنتهُ رحى الحياة ، ومزقتهُ أنيابُ التعب !

عودي يا أمي فقد هدني الهمُّ ، وكسرتني سيوف المصائب.

أرجوكِ يا أمي ، أعدَّي لي مكاناً بجوارك فقد اشتقت لرائحتكِ وحديثكِ ، أشتاقُ أن أضمَّكِ وأبكي عند قدميكِ .

أنا المهزومُ ولا ناصر لي يا أماه !

أنا الجريحُ ولا قلب يضمدني يا أماه !

أنا المتعبُ ولا كتف يسندني يا أماه !

لا أدركُ كم أمضيت من الوقتِ ممدداً بجوارِ قبرِ أمي ، ولا كيفَ عدتُ إلى المنزل بثيابي الرثة الممتلئة بالطين !

عدتُ كطفلٍ مشردٍ أتعبهُ التسولُ على أبواب الحياة ، هذا يصدهُ وذاك يطرده ، أزمةٌ تكسرهُ وحادثةٌ تدمره .

نمتُ بلا وعي ، أو لربما كنتُ غائباً عن الوعي منذُ اللحظةِ التي تركتُ فيها المطعم !

كنتُ متعباً وكأنني أسيرُ منذُ ألفِ عام ، وخائر القوى وكأنني أصارعُ ألفَ مارد .

حينَ استيقظت ، كنتِ يا شمس أولَ ما خطرَ ببالي ، تذكرتُ رسالتك التي أعطيتني إياها البارحة ، بحثتُ عنها فوجدتها في جيبي مبللةً من آثارِ المطر الذي أصابني ليلة أمس .

فتحت الرسالة ، وبدأ قلبي يستعيد وعيه :

أما قبل :

السلام على من أحيا في قلبي بذرة الحب ، ورحمة من الله على من اخضرّت روحي بلقياه ، والبركات على قلبٍ سكن قلبي فأحياه .

أما بعد :

أما إن الروح لتواقةٌ للقياك في كل حين ، ومشتاقة لحديثك في كل ساعة .

ولإن كنت من قبلك من المفرطين في أمر قلبهم ، فلقد صرت بعد هواك ممن لا يرقد لهم جفن ، ولا يميلون للكرى، حتى يكون خيالك قد راود أعينهم آلاف المرات ، وأتعب حديث الشوق قلوبهم وأدماها . فأنامُ على أمل لقياك في الغد ، فأروي ظمأ قلب طال به الشوق ، وأرمم جدار روح أراد أن ينقضّ من الحنين .

أما وقد بلغت في نفسي كل هذا المبلغ ، ونزلت من روحي كل تلك المنزلة ، فإني أشهد الله ثم أشهدك ، بأن القلب لن ينبض إلا بك ، وأن الروح لن تزهر بسواك .

شمس

حينَ قرأتُ رسالتكِ ، كنتُ كالصحراء التي سقاها المطرُ بعد طولِ عطش ، كنتُ كمن أثقلَ ظلام الليل صدره ، وكانت رسالتكِ النور الذي أزالَ ذلك السواد .

كنتُ منهكاً خائرَ القوى ، وكانَ كتابكِ كفيلاً بحملي على القيام من فراشي ، نهضت وتهيأت ثم ذهبتُ إلى الجامعة .

وكعادتنا منذُ أن التقينا ، حضرنا تلك المحاضرة سوياً، وحينَ خرجنا بادرتني بالسؤال :

- ما بكَ يا بلال ، لا تبدو بحال جيدة !؟
- لقد طردني ربُ العمل في الأمس ، ولم يعد لدي عملٌ أحصلُ منهُ على مردودٍ يكفيني ويكفي دراستي .
- يا إلهي! وماذا تنوي أن تفعل الآن ؟!
- لقد أتعبتني الحياةُ وما زلتُ في بداية الطريق ، كسرت هذهِ الحياة عودي ومازال طرياً ، لقد عانيتٌ الخيبة والحرمان مذ كنت طفلاً أحبو بين يدي أمي ، وها هي تستمرُ في تعذيبي حتى الساعة ، سأحاولُ البحث عن عملٍ يناسبُ مواعيد الحضور في الجامعة .
- وفقكَ الله ، ومنحك سبل رزقه و رضاه ، ألا تكمل لي يا بلال حديثَ أمِّك مع أم سعد وما جرى بعدها ؟

- حباً و كرامةً يا شمس ، وفت أم سعدٍ بوعدها لأمي ، وصارت تأخذها لمنزلها لتعلمها على الخياطة ، فلقد كانت أمُّ سعد خياطة الحي ، استمرت أمي بعملها في تنظيف البيوت وصارت تذهب كلَّ يومٍ بمقدار ساعةٍ أو ساعتين حتى تعلمت كل شيءٍ عن الخياطة .
- ما بِكَ تنظرُ إليَّ هكذا ؟!
- عيناكِ جميلةٌ جداً يا شمس يشغلانني عن إكمال الحديث !
- وهل أغمضهما حتى تستطيع إكمال الحديث !
- بل دعيني أغرق بهما حتى أفقدَ وعيي وأتذكرُ كل شيءٍ دفعةً واحدة !
- افقد وعيكَ كما تشاء ، ولكن أكمل لي الحديث أولاً !
- فضوللكِ سيميتكِ يوماً ما !
- سيميتني حباً بك !

- لا أريدك أن تموتي حباً بي ، أريدُ أن نحيا معاً ليعيش حبنا !
- أراكَ تتهرب من حديث أم سعد ؟!
- بل أتهربُ من أيّ شيءٍ يمنعني من تأمُّلِ عينيكِ .
- أكمل وأنتَ تتأملهما إذاً !

- هذا كلُّ ما أحلمُ بهِ !

كانَ على أمي أن تشتري آلة خياطةٍ حتى تعمل بها ، وكان كلُّ ما تملكهُ أمي من المال لا يكفي لسد رمقها ليومينِ أو ثلاثة ، فضلاً عن الأموال التي يجب أن توفرها للولادةِ التي اقترب موعدها .

لم يكن لدى أمي خيارٌ سوى أن تبيعَ بعضَ أثاث البيت حتى تؤمن ثمنَ الآلة .

وبالفعلِ هذا ما حدث ، باعت أمي خزانةً وطاولةً وبعض الأغطية ، واشترت آلة الخياطة !

- كم كانت صابرةً وعظيمةً أمكَ يا بلال !!
- إلى حدٍ لن تتصوريه أبداً يا شمس ، بدأت أمي تعمل في الخياطة بفضل أم سعد التي أصبحت تستغني عن بعض زبائنها وترسلهم إلى أمي لكي تخيطَ لهم ، كانت أمي قد تركت العمل في البيوت حينها ، فأصبحت تخيط الملابس للزبائن في النهار ، وتخيط في الليلِ ملابسي ولمّا أولد بعد !
- كم كانت مشتاقةً لرؤيتك إذاً ؟!

- كل الأمهات هكذا ، تنمو بينهنَّ وبينَ أجنتهنَّ صلةٌ روحيةٌ أعمق و أقوى من اتصالهما بالحبل السري الذي يربطهما معاً !

تحملُ الأمُ ولدها في بطنها تسعة أشهرٍ ، تنامُ وهو في بطنها ، تفرحُ وتبكي وهو في بطنها ! إلى الدرجة التي يصبح فيها جزءاً منها .

أخبرتني أمي أنها كانت تُحدثني بينما كنتُ في بطنها عن أبي ، وعن حبهما ، وعن حالة البؤس التي كانت تعيشها.

أترينَ يا شمس ، لقد اتخذتني صديقاً ولمَّا أولد بعد ، فكيف بها لا تعتبرني قطعةً من روحها وقلبها حين ولدت !!

- وكيفَ استطاعت أمكَ أن تؤمن لكما حياةً كريمةً بعد أن ولدت ؟
- لقد عانت أمي في ذلكَ أكثرَ مما يمكنُ أن يعانيهِ إنسانٌ في هذا العالم !

لقد أضعفت الخياطة بصرها ، وزارها الجوعُ والبردُ في كل ليلة . حكت لي ذاتَ مرةٍ بأنني مرضتُ في ليلةٍ ولم يكن لديها من المالِ ما يكفي لتأخذني إلى

الطبيب ، فحملتني في منتصفِ ليلةٍ من ليالي كانون، والسماء ترسلُ ثلجها إلى الأرض بكثافةٍ لا مثيلَ لها، والبرد القارس يكادُ يمنعها من الحركةِ مخافة أن تتجمد .

حملتني وركضت بي إلى بيتِ أم سعد ، طرقت البابَ كثيراً قبلَ أن تستيقظ أم سعدٍ التي عالجتني حينها بخبرةِ الأمهاتِ وحكمتهنَّ .

- وهل كان المال الذي تجنيه من الخياطةِ كافياً لكما ؟!
- بالكادِ كان كافياً ليسدَ رمقنا لأيام ، ونجوع إثر ذلك أياماً أخرى .

ما أكثرَ الليالي التي كانت تمرُّ ولا يوجد في بيتنا كسرةَ خبزٍ يابسةٍ تسدُ رمقنا ، وما أكثرَ الليالي التي غرسَ فيها البردُ مخالبه الطويلة في أجسادنا ونحنُ نبكي ونرتجفُ تحتَ الغطاءِ الوحيد المتبقي بعدما بعنا الأغطيةَ لنأكلَ بثمنها .

كانَ الشتاءُ يمثلُ كارثةً حقيقيةً لي ولأمي ، السقفُ كانَ قديماً لدرجةِ أنه كانَ يسرب ماء المطرِ الذي كان يتجمعُ فوقه ، وكانتِ المدفأة تمثلُ رفاهيةً لم نكن نمتلكها في ذلك الوقت !

- ألم يحاول أحدٌ من أهلِ أبيكِ أو أمكِ أن يساعدكم في محنتكم تلك ؟!
- بلى ، لقد زارنا مرةً أحد إخوةِ أمي حاملاً بيدهِ بعضَ الخضار والفواكه ، وكانَ ذلكَ بدون علمِ جدي بالطبع.
لكنه ما كادَ يقفُ بيننا في باحةِ البيتِ حتى اقتحمَ جدي باب البيتِ وكأنه يلاحقُ قاتلاً قتلَ ابنه ، أو سارقاً سرق ماله !
انهالَ عليه بالضرب بهمجيةٍ لم أشهد مثلها ، والشتائم لا تفارقُ لسانه .
وما إن استطاعَ ابنهُ الفرار من بينَ يديهِ والهربَ خارج البيت ، حتى انهالَ على أمي بالضربِ المبرِّح وكأنه يقاتل عدوً له !
ضربها بقلبٍ حاقدٍ لم تعرف الرحمةُ طريقها إليه .
وحين شعرَ بأنهُ تعبَ من همجيته وعنفهِ صار يركلُ ما أحضرهُ ابنهُ من الخضار بقدميهِ حتى أفسدها .
كلُّ ذلكَ وأنا أقفُ متفرجاً بكلِّ ما بأعوامي الأربعة من براءة ، رمقني جدي حينها بنظرةٍ ما غابَ حقدها عن مخيلتي حتى اللحظة !

ثمَّ رمى بعضَ الشتائمِ ومضى تاركاً أمي خلفهُ مرميةً وملطخةً بالدماء التي تسيلُ من الجروحِ التي أحدثتها ضربات جدي اللئيمة !

- كيفَ لإنسانٍ أن يحقدَ على ابنته كل هذا الحقد ! ألم يكن مرور كلِّ تلك السنواتِ والفقر الذي تعيشه أمكَ كافياً لإخماد نار البغضاءِ والحقد المستعرة في قلبه ؟!!
- يبدو بأن الجرحَ الذي أحدثه فرارَ أمي كانَ أعمق من أن يندملَ مع الأيام ، لقد كانَ هروب أمي بالنسبة لجدي يلامسُ الشرف والكرامة ، هذا مالم يغفره جدي لأمي ولم يغفره لي من بعدها .
- هل تعني بأنَّ جدكَ لم يحبكَ حين كنتَ طفلاً ، ولا حتى حين كبرت ؟!
- لم يحدث هذا أبداً ، ما زلتُ أذكرُ حينَ بلغتُ السادسة، أرادت أمي أن ترسلني إلى المدرسة ، ولم يكن لدينا ما يكفي من المالِ لشراءِ اللوازم المدرسية .

ولم تجد أمي حينها من يقرضنا المالَ نظراً لكثرةِ الديون المترتبة علينا ، فلم يبقى أمامها إلا باب جدي، وإن كانَ طرقهُ يعني الموت بالنسبة لأمي .

أخذتني أمي إلى القريةِ التي يقطنها جدي ، أرسلتني لأطرقَ الباب بعد أن حفظتُ ما يجب أن أقوله ، واختبأت هي خلفَ عربةٍ مليئةٍ بالخضار .
طرقتُ الباب ، فخرَجت جدتي ،وما إن رأتني حتى انهالت عليَّ بالعناقِ والتقبيلِ والدموع ، لقد كان الحبُ و الحنان الذي يملأ قلبها أكبرَ من حقدِ جدي وبغضه! لكنها لم تكن تستطع زيارتنا لأنَّ جدي كانَ قد أقسمَ أن يطلِّقها لو فعلت ذلك !

سأل جدي من الطارق ؟ فقيلَ لهُ بأنَ ابن خديجةَ بالباب.
حين سمعَ ذلك ، خُيِّلَ إليَّ بأنهُ سمعَ منادياً ينادي بأن الأعداء أصبحوا خلف الباب !!
ركضَ جدي حتى بدون أن يستعين بعكازهِ التي لا يستطيعُ المشي بدونها على ما كنتُ أعتقد !
وما إن وصلَ إليَّ حتى حملني من أذنيَّ كما يحمل كيس الدقيق ورمى بي خارج الدارِ كما تُرمى القطةُ المذنبةُ التي لوثت الحليب !
وقفَ أمامَ الباب وصارَ يصيحُ بأعلى صوتهِ وكأنهُ يعلمُ بأنَّ أمي مختبئةً في مكانٍ ما تسمعُ ما يقول :

ارحلوا من هنا ، لا أريدُ أن أرى أحداً منكم حتى أموت ، وإن مت فلا يزور أحدٌ منكم قبري !

- اعذرني يا بلال ، ولكنني أصبحت أكره جدك رويداً رويداً ، ما هذا الحقد الذي يسكن قلبه !! وكيف استطاعت أمك أن تؤمِّن المال لشراءِ لوازمك المدرسية ؟؟
- أنا لن احبَ جدي أبداً يا شمس !

وإن كنتُ أكنُّ له بعض العرفان لقاء المنزل الذي ما زلتُ أسكنُ فيه ، ولكن الأسى والبغض الذي نلته منهُ صغيراً لن أنساه أبداً ، بالإضافةِ أنَّه من أمرَ بقتلِ أبي!

أما كيف استطاعت تأمين المال ، فقد اضطرت أمي إلى العودة لخدمةِ البيوتِ بالإضافة لعملها في الخياطة، حتى استطاعت أن تؤمِّن لي المالَ اللازمَ لشراءِ ما أحتاجُ إليه .

- كم كانت أمكَ سعيدةً حين أدخلتك المدرسة يا بلال !!
- لقد كانَ حلمها الوحيدُ أن أدرسَ وأتفوقَ في دراستي، لقد كانت أمي طالبةً مجدةً في دراستها قبل أن تلتقي

بأبي ، لذلك أرادت مني أن أكملَ حلمها الذي أضاعتهُ في لحظةِ طيش ! .
في يومي الأول في المدرسة ، ألبستني أمي بدلتي المدرسية ، وصففت لي شعري ، وقالت لي جملةً مازالت ترنُّ في أذني إلى اليوم :

إنكَ اليوم تخطو أولَ خطوةٍ في الطريقِ التي أحبّتها أمكَ ولم تكملها ، أكمل هذا الطريق يا بلال مهما حصل ، إياكَ أن يشغلكَ شاغلُ عنه .
ثمَّ طبعت قبلةً على جبيني وأرسلتني إلى المدرسة .

- عظيمةٌ هي الامُ يا بلال ، تفعلُ كلَّ ما بوسعها لتصلَ بكَ إلى حلمك . حتى وإن كان يبدو للناظرِ بأنَّ لديها مصلحة شخصيةٌ في أن تكمل طريقها ، ولكنه بالنهايةِ طريقكَ الذي كنتَ ستختاره حتى وإن لم تكن أمك قد مشت فيه !
- هذا بالضبطِ ما كان يا شمس ، حين أصرت أمي على إدخالي إلى المدرسة ، لم تكن تريدني أن أكملَ حلمها بقدرِ ما أرادت أن أضعَ أولَ خطوةٍ في طريقي أنا ، طريقي نحو المستقبل .

لا أخفي سراً إن قلتُ لكِ بأنني أملكُ أحلاماً كبيرةً ، ولكنَ إيماني بأنَّ أمي حتى وبعد موتها راضيةٌ وراغبةٌ في أن أكملَ هذا الطريق ، هو أحدُ أبرز دوافعي للاندفاع باتجاهِ أحلامي و أهدافي .

- هل تبوح لي بأحلامك ، أم أنَّك من أولئك الذين يخبؤون أحلامهم في قلوبهم ولا يظهرونها خشية حسد الناس .
- حقيقةً ، لست من أولئك الذين ذكرتيهم ، ولكنني بالمقابل لستُ أيضاً من الذين ينشرون أحلامهم على قارعة الطريق ، ويتحدثون بها أمام كل شخص يلقي التحية عليهم ، أنا مع فكرة أن نبوح بالأحلام أمام أشخاصنا المقربين والذين نثقُ بهم ونثق بأنهم سيشدُّون من عزائمنا لنبلغها .

البعضُ يا شمس هوايته المفضلة أن يحطم معنويات الأخرين وأحلامهم ، يجد متعةً خاصةً حين يرى اليأس في عينيكِ بعد أن يكون قد زرع الأشواك في طريقك ، وحفر فيه من حفر الخوف والإحباط ما شاء الله له أن يحفر .

- أعتقد بأنك تظنني من النوع الذي يحطم الأحلام ويدمرها ؟

- و ما الذي دفع بكِ إلى هذا الاعتقاد !؟
- لأنك راوغت بالفكرة ولم تخبرني بأحلامك !
- أنا أراوغ كي أطيل في حديثي معكِ .
- أطل الحديث كما شئت ، ولكنك لن ترحل قبل أن تخبرني بها !
- أعتقد بأنكِ ترغبين سماع أسمكِ بينها !
- وهل حقاً أسمي أحد أحلامك !
- أحد !!!

بل هو أكبر أحلامي وأجملها ، هو الحلم الذي سأختاره إن خُيِّرتُ بين جميع أحلامي !

- أرى أنك ما زلت تراوغ !
- وأرى بأنَّ عيناكِ ما زالتا تدفعاني للمراوغةِ أكثر لكسب المزيد من الوقت في تأملهما .
- إذاً إما تحدثني عنها وإلا سأرحل وأحرمك من تأملك.
- وهل يرضى قلبكِ أن يحرمني شيئاً أحبه !
- وهل يرضى ضميرك بأن تأكلني نار الفضول !
- حسناً ، سأستسلم وأحدثكِ عن بعضها .

أحلم يا شمس بعد أن أنهي دراستي أن أفتتح عيادةً أعالج فيها المرضى ، وأساعد المحتاجين الذين لا يملكون أجر معاينتهم ، أحلم بأن أجني من المال ما يعينني على بناءِ بيتٍ كبيرٍ يجمعني بكِ نمضي فيه أجمل أيام حياتنا ، أحلم بأن أساعد الفقراء والبؤساء الذين أنتمي إليهم وأشعر بوجعهم وألمهم ، أن أخففَ عن بعضهم بعضَ ما يصيبهم من الألم والعوز والحرمان .

وأنتِ يا شمس بماذا تحلمين ؟

- أحلمُ بأن أسكن معك في ذلك البيت الذي ستبنيه ، وأن أساعد معك أولئك الفقراء والمحتاجين ، وأن أفتتح عيادةً أكبر من عيادتك .
- ولماذا أكبر من عيادتي ؟! أهو الطمع ؟!
- بل حتى أكون قادرةً على مساعدة المحتاجين أكثر منك .
- بما أن الغاية نبيلة والوسيلة نبيلة ، فلا بأسَ بذلك إذاً.
- هل تؤمن بهذا المبدأ ؟
- أي مبدأ ؟
- الغايةُ تبرر الوسيلة

- لا أوافق على هذا المبدأ من حيث ما هو شماعةٌ يعلقُ عليها الأخرون وسائلهم القذرة .
تباً للغايات النبيلة إن كان الوصول إليها بوسائلَ دنيئة.

- هلّا وضحتَ لي أكثر ؟
- حسناً ، ما رأيكِ بمن يجرِّب أدويةً على بعضِ الأطفال والتي ربما أودت بحياتهم ، في سبيلِ إنتاجِ لقاح ضد مرضٍ معين ، تلك غايةٌ نبيلة ألا وهي الحصول على اللقاح ضد المرض ، ولكنَّ الوسيلة كانت في غاية القذارة ، ألا وهي أرواح بعض الأطفال .
- أتفقُ معك بالتأكيد ، ولكن لربما قال البعض : لا بأس إن ضحّى البعض في سبيل الجميع !
- التضحيةُ شيء ، وأن يصبح الأطفال فئران تجارب في المختبرات شيءٌ آخر .
فرقٌ كبيرٌ بين أن يضحي الإنسان بنفسه طواعيةً في سبيل الوطن أو البشرية ، وبين أن يخسرَ روحه في أحد المختبرات لقاء أجرٍ ماديٍ زهيد ، وربما بلا مقابل ، في سبيل تجربةٍ كان من الممكن أن تجري على الحيوانات !

- هذا ما يتعلق بأرواح البشر ، فهل لديك مأخذٌ آخر على هذا المبدأ لا يتعلق بالأرواح والموت ؟
- بالطبع ، هذا المبدأ كبيرٌ جداً وأوسع من أن يختص في مجالٍ واحد ، لديكِ مثلاً ذلك الذي يغشُّ في كل الامتحانات وإن سألهُ أحدٌ ما ، ما الذي يريدُ من وراءِ ذلك ؟!

يقول له : بأنَّه لا يريد إلَّا أن يحصل على شهادةٍ يُفرحُ بها والديه !

الغايةُ نبيلةٌ وهي إسعادُ أهله ، ولكن أين النبل في الوسيلة ؟!

- دعني من الغايات و الوسائل ، وعد بي إلى حديثِ طفولتك ، كيفَ كنت تقضي وقتكَ ، وكيفَ كانت أمكَ تجاهد للحصول على المال الذي يعينكم على أمر الحياة ؟
- هذا حديثٌ لهُ شجنٌ يا شمس ، تلك ذكرياتٌ تدمي القلب وتحرقُ الفؤاد !
- إن كان الحديث سيحزنك فدعكَ منه !
- لا بأس ، تركُ الحديث عن الماضي لا يعني أنه سيحذفُ من ذاكرتنا ، تلك الأحداث التي مررنا بها

- لا بدَّ أن تبقى في ذاكرتنا ، ينبغي أن نستمدَّ منها القوة والعزيمة ، لا أن نضعَفَ حين نذكرها .
- هاتِ إذاً ما لديك من حديث الماضي وشجنه .
- حين كنتُ في الصفِ الثالث الابتدائي ، لم يعد ما تجنيه أمي من المال في الخياطة كافياً لسدِّ احتياجاتنا ، فاضطرَّت أمي أن ترسلني للعمل في البقالية عند العم

عدنان ، والعم عدنان هذا من أقسى البشر الذين التقيتُ بهم " من بعد جدي طبعاً " .

- أما كنتَ تستطيعُ أن تتركَ العملَ لديه ؟!
- بالطبعِ كنتُ أستطيع ، ولكن لم أكن أستطيع أن احصلَ على عملٍ آخر . كانت حارتنا فقيرةً ، وكان العم عدنان هو البقال الوحيدُ هناك ، لذلك لم يكن أمام القتيل سوى ذلك القبر !
- وماذا كنتَ تعمل لديه ؟
- حين كنتُ أعود من المدرسةِ ، لم تكن والدتي قد عادت من عملها في البيوتِ بعد ، كانت تحضِّر ليَ الغداء قبل أن تذهب ، وكنتُ أتناول طعامي ثم أذهب إلى البقالية ، لأجد هناك العم عدنان كعادته مقطّب الجبين،

يرمي المدرسة والتعليم بأقبح الشتائم ، ويتهمهما كعادته بتمييع الأطفال وإضاعة وقتهم .

- كان يظنُّ بأنَّ التعليم ضياعٌ للوقت ؟!
- نعم ، لكن هذا الرأي لم يكن عبثاً بالنسبةِ لهُ .

فالعم عدنان كان مثقَّفاً على حدِّ تعبيره " فلقد أتمَّ الدراسة حتى الصف التاسع الذي لم ينل شهادته حتى" فقد كان لديه ابنٌ متخرجٌ من كلية الهندسةِ الكهربائية، ومنذ أن تخرَّج وهو يعلِّقُ شهادته في صدرِ البيت ، ويعمل في ورشة كهربائيات كأيِّ كهربائيٍ تعلَّم المهنةَ عن أبيهِ وجده !!

لذلكَ كان العم عدنان ينقم على العلم والمتعلمين ، فما فائدة أن يدرس أحدهم أكثر من ستة عشر عاماً ليحصل على شهادةٍ يعلِّقها فيما بعد على جدارِ غرفته، ثمَّ يذهب للعمل في مهنةٍ كان يستطيعُ أن يتعلَّمها في سنةٍ واحدةٍ أو سنتين على أبعد تقدير !!

- ألا ترى بأنَّ هذا الرأي هو إجحافٌ بحق العلم والمتعلمين على حدٍ سواء !؟
- لا أنكرُ هذا ، ولكن لا أعتقد أن العم عدنان وأمثاله سيغيرون وجهة نظرهم حتى يلمسوا تَغيراً في الواقعِ

- المحيطِ بهم ، كأن يجد أبنائهم وظيفةً تنصفُ شهادتهم وتعبهم .
- وماذا كنتَ تعمل حين تصل إلى البقالية ؟
- كنتُ أجدُ العم عدنان قد حضّر لي قائمةً بالطلبات التي يجب أن أوصلها إلى البيوت ، فأحمل ما أستطيع أن أحملَ بيديَّ الصغيرتين وأنتقلُ من منزلٍ لآخر أوصلُ لهم ما قد طلبوه سابقاً . وحين أعود إلى البقالية كنتُ أسمعُ كالعادة إلى الشتائمِ المختلفة من العم عدنان بسبب تأخُّري على حد كلامه !

- " قلتِ مازحةً " وهل كان من الضروري أن تتأخر في كلِّ مرةٍ يرسلك فيها إلى مكانٍ ما ؟!
- لا أعتقد أنني كنتُ أتأخر في كلِّ مرة ، ولكنها كانت ذريعةً ليمارس فيها العم عدنان تسلّطه على طفلٍ لم يبلغ العاشرة من عمره بعد ، وإن حصل وتأخرتُ في بعض المواقف ، فلم يكن ذلك بسبب تقصيري في العمل ، أو رغبتي في تضييعِ الوقت ، بل كانَ ذلك بسبب أنّي طفل ، ولم أكن أقوى على حملِ كل تلك الطلبات ، فكنتُ أميلُ للاستراحةِ قليلاً ، وهذا ما كان

- يؤخّرني عن العودةِ إلى البقاليةِ باكراً ، الأمر الذي لم يرق للعم عدنان !
- ومتى كنتَ تنجزُ مهامك المدرسية!؟
- حين كنتُ أعود إلى المنزل ، وذلك قبل صلاةِ العشاء بقليل . كنتُ أجد أمي قد أعدت طعام العشاء وجلست إلى تلك الأقمشة لتخيطها .
كنتُ لا ألبث أن أتناول طعامي وأنجزَ مهامي لأخلدَ إلى النوم سريعاً من شدَّة التعب الذي كان ينال مني .
- أجد بأنك قد حُرمتَ من كلِّ ما يناله الأطفال في طفولتهم من لهوٍ ولعبٍ وتسلية !
- هذا صحيح ، كانت طفولتي أشبه برجولةٍ مبكرة ولكن بجسد طري وعقل ليّن ، لقد دخلتُ إلى ميدانِ العمل في الوقتِ الذي كان فيه أقراني يمرحون في ميدان اللعب ، كنتُ أفكرُ كيف سأحصلُ على المالِ لأشتري أقلام التلوين الخاصةِ بي ، في الوقتِ الذي كان فيه الأطفال يرمون أقلامهم الملونة في سلَّةِ المهملاتِ إن لم يعجبهم لونها .
كنت أفكر كيف سأحصل على الوقت لأنهيَ التحضير لامتحاني حيثُ كنتُ منشغلاً بتوصيل الطلبات ، في

الوقت الذي كان فيه الأطفال يفكرون بأي لعبةٍ سيمضون وقتهم .
حين أعود بنفسي إلى الوراءِ الآن ، أذكرُ كيفَ كنتُ أقف وأنا أحمل طلبات التوصيل أمام الأطفال وهم يلعبون بالكرةِ في الشارع ، اتأمَّل كيف كانوا يضحكون عندما يسجِّلون هدفاً ، وكيف يتشاجرون بعد كلِّ كرةٍ تلامس العارضة ، هذا يقسم بأنها هدف وذاك يحلف بعكس ذلك ، وأنا أقف بكل طفولتي أضحكُ لضحكهم ، وأغضبُ لغضبهم ، وقلبي الصغير يطيرُ خلف الكرةِ وهي تحلِّق بعد أن يسددها أحدهم .

- ألم تسنح لك الفرصة بأن تلعب معهم ولو قليلاً ؟

- بلى حصل ذلك ، ولكن لم تكن النتيجة جيّدةً تماماً . كنتُ حينها كالعادةِ أحملُ طلباً أوصله لأحد المنازل ، إذ صادفتُ لعبةَ كرة قدم بين أصدقائي في الشارع ، كنتُ أودُّ أن أكمل طريقي كالعادة ، إلَّا أنَّ أحدهم أصرَّ أن أشاركهم اللعبة ، راقني ذلك الأمر، فوضعتُ

- الطلبَ جانباً ودخلتُ اللعبةَ أركضُ خلف الكرةِ كأقراني ، أسددها فتحلِّق للأعلى ويحلِّق قلبي معها . شعرتُ للمرةِ الأولى بأنني طفل ، وأنني لا أختلف عن باقي أقراني من الأطفال ، الأمر الذي لم يرق للعم عدنان الذي يبدو بأنَّهُ أحسَّ بتأخري مبكراً هذه المرة وجاء في طلبي ، وحين رآني ألعب الكرة ، كأنه رأى لصاً يسرقُ من بقاليته ، هجم عليَّ كما يهجم البطل المغوار على عدوِّه ، أمسكني وبدأ يصفعني الصفعة تلوَ الأُخرى ، وكأنَّه ينفضُ الغبارَ عن سترتهِ المتسخة، بالإضافةِ إلى الكلام القذر الذي كان يعبِّر عن حالته الأخلاقية ، ثم رمى بي أرضاً وأمرني بألّا أعود إلى البقالية ، وحمل الطلب وذهب .
- وهل فقدت العمل بعد ذلك ؟!

- أعادني العم عدنان إلى البقالية ، بعد أن توسَّلت إليه أمي ما شاء الله لها أن تتوسل . أعادني بعد خطابٍ طويلٍ عن أهميَّة العمل وعن الابتعاد عن المماطلة فيه، وعن كوني غير كلِّ الأطفال يجب أن أعمل لأعيش ، وبأنَّ اللعب لا يقدم ولا يأخر .

- إنَّ أقسى ما يمكن أن يواجه الطفل هو أن يحرم من اللعب ، ومن أن يعيش كأقرانه .
- هذا صحيحٌ نوعاً ما ، لكن هناك أمور أصعبُ يا شمس.
- مثل ماذا ؟
- الأصعب من هذا كلِّه أن يستيقظ الطفل في منتصف الليل ليجد أمَّهُ تبكي ، حين يعود الطفلُ من العمل منهكاً بدل أن يستند على كتف أبيه ، أن يرى من حوله الأطفال تنادي : أبي .. أبي ، وهو لا يملك من يناديه. لم يجرِّب حتى ما هو هذا الأب ، كيف يكون ، كيف هي الحال حينَ تميلُ بكلّكَ على أبيك !
- يقال بأنَّ الله حين يسلبُ من أحدٍ شيئاً ما فإنَّه يعوضه في مكانٍ آخر ، فهل عوَّضكَ الله بشيءٍ يسدُّ مكان أبيك يا بلال ؟
- فضل الله كان كبيراً جداً ، ولكن هناك أمورٌ لا يمكن أن تتعوَّض أبداً يا شمس ، لا يمكن لأيِّ شيءٍ في هذه الدنيا أن يسدَّ مكان الأب . منحني اللهُ أماً قويةً ، صامدةً ، فعلت كلَّ شيء لتصل بي إلى برِّ الأمان برغم كل ما واجهها .

- ولكن يبقى مكان الأب في القلب فارغاً ، لا أخفي عنكِ سراً إذا قلتُ لكِ بأنني كنتُ أشعرُ بأنَّ الأمورَ على ما يرام مع أمي ، وإنها كانت قادرةً على سدِّ فراغ أبي ، ولكن بعض المواقف تشعركِ بغصةٍ في القلب ، وقوف أحدهم إلى جانب أبيه في يوم نجاحه ، تقبيله يده ، افتخاره بعمل أبيه أمام أقرانه .

كل تلك الأمور تدفعكِ للحنين ، للحسرة ، وللبكاء أحياناً

- حدثني عن أجملِ يومٍ جمعكَ بأمِّك ؟
- كثيرةٌ تلكَ الأيام يا شمس ، كثيرةٌ تلكَ الليالي التي ضحكنا فيها معاً برغم جوعنا ، وتجادلنا فيها ، ربما لم تكن تلك الأيام جميلةً ، ولكن وجود أمي فيها كانَ كافياً لوحدهِ ليجعلَ الفرحَ يزيّنُ تلكَ الليالي .

إن كنتُ سأحدثكِ عن أجملِ يومٍ ، فربما كانَ ذلك اليوم الذي صدرت فيه نتيجتي وعلمتُ بأنني سأدخلُ كليةَ الطِّب ، كان عيداً حقيقياً في ذلك اليوم .

شعرتُ بأنَّ أمي أصبحت أصغرَ بعشرينَ عاماً وهي تراني أحققُ حلمها وحلمي ، ولربما كانت سعادتي

بتحقيقِ حلمها أكبر من سعادتي بالوصولِ إلى ما أتمناه .
بعضُ الديون لا توفَّى يا شمس ، ودينُ أمي كان أكبرَ من أن ينالَ منهُ الوفاء ، لذلك كان عليَّ على الأقل أن أشعرها بأنَّ حلمها لم يمت ، وأنّهُ ما زالَ قابلً للحياةِ بعد .

-6-

دعكِ من هذا الآن ، وتعالي أحدثكِ عن ذلكَ اليوم الذي كنا نسيرُ فيه معاً في حديقةِ الجامعة ، وكانت الامتحانات تطلُّ برأسها على بعد أيامٍ قليلةٍ منا ، قلتِ لي حينها :

- ما رأيكَ بمن يقولُ بأنَّ الحبَّ أعمى ؟
- لا بأس أن يكون الحب أعمى في بعضِ الأوقات ، ولكن المشكلة في أن يجعل منا عميانَ بصرٍ وبصيرة.
- هلّا وضحتَ لي أكثر ؟!
- أنا مع فكرةِ أنَّ الحبَ أعمى ، لأن الحب يجعلنا عمياناً عن سلبيات من نحب ، مبصرين على إيجابياته .

لا يوجد إنسانٌ كامل ، في كلٍّ منا عيوبٍ ونقائص ، وإن اختلفت نسبتها من شخصٍ لآخر ، ولكنها في النهايةِ موجودة .

لكن في الحب ، يتعامى المحب عن أخطاء المحبوب، ويركز على محاسنه .

وهذا أمرٌ جيدٌ بالمناسبة ، لأننا بشر ، ومن الطبيعي أن نخطأ ، وإن كنا سنقف عند كل خطأ صغيرٍ كان

أم كبير ، ستنتهي كلَّ علاقاتنا بفشلٍ ذريع عند أول مشكلة . هذا التغافل هو الذي يضمن استمرار العلاقة.

- هذا القسم الإيجابي من عمى بصيرةِ المحب ، فأينَ القسمُ السلبي من هذا الأمر ؟
- البعض حين يصل إلى قلب محبوبه يظنُّ بأنه قد أتمَّ دوره في هذه الحياةِ على أكملِ وجه ، وأن لا داعيَّ للتركيز إلا على الحب ، فنجده أهمل دراستهُ وأضاعها ، وأهمل عملهُ ، وخرب مستقبله .

وكنتيجةٍ طبيعيةٍ لهذا الإهمال ، سنجد بأنه سيضيّعُ حبهُ فيما بعد .

- قلةٌ من يستطيعون التوفيق بين علاقةِ حبٍ قوية ودراسةٍ ناجحةٍ أو عملٍ ناجح ، لا بدَّ أن يطغى أحدٌ على الآخر .
- بل هم الأغلبيةُ الناجحة يا شمس ، من قال بأنَّه يجب علينا أن نضحّي بعواطفنا لمصلحةِ دراستنا ، ومن قال بأنه يجب أن نضيّعَ مستقبلنا في سبيل من نحب ! أنا أرى أنها أمورٌ متكاملةٌ أكثرُ منها متناقضة ، الإنسان الطبيعي هو من ينزل كلَّ أمرٍ منزلتهُ الطبيعية، الحب يدفعكِ للدراسةِ بشكلٍ أكبر ، والدراسةُ الجادة تصنعُ مستقبلاً رائعاً .

- لكن لربما كان الحبُ قوياً لدرجةِ أن يمنعكَ من الدراسةِ أحياناً !
- هذا ليس حباً قوياً يا شمس ، بل حبٌ غبي .
- غبي !!
- نعم غبي ، الإنسان العاقل الذي يؤمن بالحبِّ كمشاعر سامية ، يسعى بكلِّ ما يملك وبكلِّ ما يستطيع أن يبلغ بحبيبه إلى أعلى المراتبِ وأعلى الدرجات ، لا أن يقف عائقاً بينه وبين النجاح .
- وكيفَ يتحققُ ذلك ؟
- كما قلتُ منذُ قليل ، بأن ننزلَ كلَّ أمرٍ منزلتهُ الطبيعية، لا بأسَ ببضعِ من الأيام لا يتواصل فيها الطرفانِ مع بعضهما وذلكَ في أوقاتِ الدراسة .
لا أعتقد بأنَّ هذا سيميتُ أحداً منهم !
- أعتقدُ بأنّكَ تمهد للابتعاد عنّي في أيام الامتحانات ؟!
- ربما أبتعد جسداً ، ولكنَّ روحي ستبقى مرافقةً لكِ .
- إذاً ستبتعد !
- إن كان هذا يصبُّ في مصلحتكِ فلمَ لا ؟
- يستحيلُ أن يكونَ لي مصلحةٌ بابتعادك ولو لثانيةٍ واحدة !
- حتى وإن كان الأمر يتعلَّق بالامتحانات ؟

- فلتذهب الامتحانات إلى الجحيم ، أريدكَ أن تبقى بجانبي دائماً .
- ماذا لو فرَّقنا القدرُ يا شمس ؟!
- أرجوكَ لا تكمل يا بلال ، إنني أمضي الليل باكيةً لمجرَّد أن تخطرَ لي هذه الفكرة .
- نحنُ لا نملكُ من أمرنا شيئاً يا شمس !
- لكننا نملكُ قلوبنا !
- القلوبُ أضعف من أن تواجه الأقدار .
- وكأن الأقدار ستفرقنا لا محالة !
- لا قدَّر الله ، ولكن يجب أن نتوقع أيَّ شيءٍ من هذه الحياة الظالمة .
- سنحاربُ لنبقى معاً ، سنواجهُ الحياةَ معاً ، وإن كان لا بدَّ من فراقنا فدعنا نستمتع بحبنا الآن ، وأترك الأقدار لله يفعلُ بها ما يشاء .

كنتِ تخشين حديث الفراق ، وكأنَّكِ تخافين أن تتحول أفكارنا وخوفنا من الفراق إلى واقعٍ لا يمكنُ لنا أن نواجهه.

وكنتُ بدوري أشعرُ بحدسي الذي أكسبتني إياه الحياة بأنَّ هناك أمرٌ ما قادم .

هناك وخزةٌ في الصدر تقولُ لي بأنَّ الحياةَ لن ترضى أن يستمر فرحي بكِ طويلاً .

وكأنّي قد عقدتُ اتفاقاً مع الحزنِ لمدى الحياة ! .

في تلك الليلة كنتُ قد كتبتُ لكِ رسالةً ولم أجرؤ ان أقدمها لكِ ، لا ادري لماذا تراجعتُ في آخر لحظةٍ قبل أن أدسَّها في كتابكِ كعادتي في إيصال الرسائل إليكِ .

ربما خشيتُ أن أشعلَ شعورَ الفراقِ والغيابِ في نفسكِ ، وربما خشيتُ أن تقيمَ وخزةُ صدري الحجة عليَّ بأنَّ الغيابَ قادمٌ لا محالة !

هذه الرسالة دونتها كعادتي في مذكراتي اليومية التي أكتبها عن الأحداث التي نقوم بها ،ولربما سنحت لكِ الفرصة أن تقرئيها ذات يوم ، لكنِّي لن ارسلها لكِ على أيِّ حال .

قلتُ لكِ في بعضها ما قلت :

غيابكِ مرٌّ يا حلوة !

أتراك تدرين هذا الكمَّ الهائل من الفوضى الذي خلّفه غيابك في صدري !!

شريانٌ يرفض الانصياع لأوامر قلبٍ فقد مليكته ، وعقلٌ يواسي هذان البائسان على غيابك !!

عينان أصبحتا ك شرفةٍ مهجورة مطلة على صحراء خاوية لا ماء فيها ولا بشر ، حتى تلك الأذن المسكينة أغلقت أبوابها كمكتبة قديمةٍ في بلادٍ كلٌّ من فيها جهلة !! أغلقتها بوجه كل الأصوات التي لا تحمل إيقاع ضحكاتك .

قلمي الذي لم يفارق يوماً يدي صار على غيابك مشلولاً يتكئ بعجزٍ على دواة الحبر التي أراها أيضاً اتشحت بالسواد على غيابك !!

فقط حين تغيبين يا قصب السكر.. بلا طعمٍ تمسي الحياة.. ولا مظهر ! .

دعكِ من حديث الحزن الآن ، فما زال في الفرح بقيّة ، ونحنُ اتفقنا أن نعيش الفرح حتى آخر قطرة ، وأن نعيشَ بالحبِ ما دمنا أحياء .

أتذكرين ذلك اليوم الذي انتظرتُ فيه ملياً حتى يغادر والداكِ المنزل حتى يتسنى لي أن أعطيكِ رسالة عاشقٍ فارقكِ يوماً فمات اشتياقاً ، وذاب فؤادهُ شوقاً للحظةٍ يراكِ فيها .

كنا قد اعتدنا أن نتبادل الرسائل في الجامعة ، وكانت الجامعةُ في هذه المدة قد أغلقت أبوابها استعداداً لموسم الامتحانات ، ولم يصبر قلبي على ذلك ، وكان باب بيتكم هو الحل .

طرقتُ البابَ بهوادة ، وبدون أن تفتحي سألتِ :

- من الطارق ؟
- عاشقٌ أذابت مرارةُ الاشتياق صدره ، وجاء يطلبُ رؤيتكِ ليشفى .
- وماذا يريدُ هذا العاشق ؟ "قلتِ بعد أن عرفتِ صوتي"
- أريدُ أن أكونَ ذلك الشرقيُّ الذي يصطادُ لكِ النجومَ ليزيّن بها شرفتكِ ، أو ذلك المحارب الذي يقاتل جندَ أبيكِ لينالَ زهرةً من حديقتكِ .
- ألا تخشى أن أحبَّ ذلكَ الشرقي ، وتعجزُ أنت عن اصطياد النجوم ، أو أن أشتاق للمحارب ويقتلكَ جندُ أبي ؟!

- لا يهمني إن ضيَّعتُ النجومَ وقد اصطدتُ القمر ، ولا همي إن أُريقت دمائي على عتبةِ بابكِ حرباً لأنالكِ .
- إذاً ارحل قبل أن يأتيَ أبي ، فماذا أفعلُ بك ميتاً ؟!
- لن أرحل قبل أن أراكِ .
- لا تكن مجنوناً يا بلال ، تعرفُ بأنني لا استطيعُ ذلك!
- إذاً سأضعُ الرسالة أمام الباب وأراكِ من بعيدٍ وأنتِ تأخذينها .
- حسناً ، لك ذلك .

انتظرتِ قليلاً حتى ظننتِ بأنني قد غادرتُ فعلاً ، ولمّا فتحتِ البابَ لتأخذي الرسالة كنتُ واقفاً أمامكِ مندهشاً وكأنني أراكِ للمرةِ الأولى !

قلتُ لكِ أحبكِ وأعطيتكِ الرسالة ومضيت وأنتِ تقفين والخجل يقطر من عينيكِ كماءِ الورد .

كان قلبكِ كالعصفور الصغير يطيرُ فرحاً وحباً وهو يقرأُ الرسالة :

صباحكِ سكر..

تراودني أسئلة منطقية عن الطريقة التي بزغتِ فيها إلى هذا الكون ، أتراكِ نبتّ من ياسمينةٍ معلقةٍ على جدار مسجد، أم سقطتِ من نجمةٍ كان يستدلُّ بها الصالحون على قبلتهم، أو حتى يمكن أن تكوني خلقتِ من تربةٍ مرويةٍ من ماء زمزم ، تلك أمور لست متأكداً تماماً أيها أصح !

لكن ما أنا متأكدٌ منه أنّك لم تخلقي مثل بقيَّة البشر ، عفتك وخجلك الذي تتزين به النجوم محال أن يكون من طباع بشر ، وعيناكِ التي يشرق منها النور الذي يضيئ العالم يستحيل أن تكون لبشر !!

ملاكٌ أنت يا سيدتي.. ومثلك لا يقال له إلَّا صباحكِ سكر !

كانَ قلبكِ يضخُ الدماءَ بشدّةٍ ، حتى يتسنى لكلِ نقطةٍ في جسدكِ أن تفرحَ أكثر .

على الرغم من أنَّ كل كلامي كان قليلاً بحقكِ ، ولكن هذا حال كل فتاة ، تفرحُ حينَ يقال بحقها كلامٌ جميل ، حتى وإن لم تظهر ذلك .

كانت دهشتكِ أكبر حينَ قلبتِ الورقة ، و وجدتِ رسالةً أُخرى مخطوطةً هناك :

تعالي أحدثك عني..

أنا ذلك البئر الذي يملأه ماءهُ ولا يرتوي إلا بكِ

ذلك الليل المتشح بظلمته ، ويحتاج نوركِ ليشرق فجره

تلك الغيمة المشبعة ماءً وتحتاج ابتسامتكِ لتمطر

ذلك الكتاب المجهول الذي يريد منكِ أن تكوني عنوانه

تلك السمكة الهائمة التي تحتاج ماء حبكِ لتعيش فيها

أتدرين من أكون بدونكِ .. ؟

نصٌّ قصيدةٍ ضيَّعت عند كل سطر جملة قيلت فيها

نهرٌ أضاع مساره فهام في الصحراء وجف !

أنا بدونك كوكبٌ معتمٌ لا ماء فيه ولا حياة

روايةٌ أضاعت أبطالها ، وأبطالٌ فقدوا أسمائهم ، وأسماءٌ نسيت معانيها !

قلبي بدونكِ كسفينة قتلت قبطانها ثم أغرقت ركابها حزناً على قتيلها !

أنا في غيابك نجمةٌ خاصمت القمر ، فقطع عنها نوره ، فذبلت ، ونُسيت ، وماتت !.

-8-

أتذكرينَ يا شمس حينَ حدَّثتكِ عن وخزةِ صدري التي تشعرني بأنَّ أمراً ما قادم ؟!

كانَ ذلك الشعورُ بمحله ، كنتُ أعلمُ بأنَّ الحياةَ أقسى من أن تتركني وشأني ، ولكن هذه المرة كانت الصدمةُ أكبرَ من أن أحتملها يا شمس ، وأقسى مما كنتُ أتوقعُ بكثير !.

كان ذلكَ اليوم يوم سبت ، أديتُ صلاةَ العشاء ، وأويتُ إلى فراشي هرباً من بردِ كانون .

تحضَّرتُ لأنهي محاضرةَ التشريح الأخيرة ، حيث كانَ ينتظرني امتحانٌ صعبٌ في الصباح .

طُرِقَ البابُ طرقاً خفيفاً ، انتابني شعورٌ غريبٌ من زائرِ الليلِ هذا !

فتحتُ الباب ، فرأيتُ رجلاً طويلاً ، لحيتهُ التي خالطها البياضُ تدلُّ بأنَّه في عقده الأربعين ، لم أكن قد رأيتهُ أبداً ، ولكنَّ شعوراً غريباً صارَ يسري في جسدي وكأنني أعرفه منذُ ألفِ عام !.

- كيفَ حالكَ يا بلال ؟
- " ويعرف اسمي أيضاً !! " قلتها في نفسي .. الحمد لله ، من أنت ؟
- ألا تدعوني للدخولِ أولاً ؟!
- بالطبع ، تفضَّل !

حينَ دخل ، صار يطيل النظرَ إلى أرجاءِ البيت ، وكأنَّه يبحثُ عن تفاصيل معينة ، أو ربما عن مشاعر ضائعة !

وقفَ طويلاً أمامَ صورةِ أمي إلى الحدِّ الذي أثارَ إزعاجي، فبادرتهُ قائلاً :

- تفضل بالجلوس يا عم .
- شكراً لك ..قالها وجلسَ على فراشي وجلستُ أنا على الطرفِ الآخر .
- ألا توَّدُ أن تخبرني من أنتَ يا عماه ؟!
- أراكَ تستغرب أنّي قد زرتكَ في هذا الوقت ، هل تعيشُ لوحدكَ هنا ؟

- ألن تخبرني من أنت ؟!

- أخبرني أولاً أينَ أهلك ؟ " وابتسامةٌ خفيفةٌ ارتسمت على شفاه الرجل ! "
- لم أعتد أن أحدّثَ الغرباء عن أهلي !
- تلكَ الصورةُ لأمِّكَ أليسَ كذلك ؟
- نعم !
- وأينَ هي الآن ؟
- لقد توفيت منذُ فترةٍ قريبة .

كنتُ أشعرُ بأنَّهُ يسألني أسئلةً يعرفُ إجاباتها مسبقاً ، كانَ الشَّكُ يراودني ، ولكنَ الفضول دفعني لأجاريهِ في الحديثِ أكثر !

- وأينَ والدك ؟
- توفي هو الآخر ، ولكن منذُ مدةُ بعيدةُ جداً .
- منذُ متى ؟
- قبلَ أن أولدَ حتى .
- متى زرتَ قبرهُ آخر مرة؟
- لم أزرهُ أبداً ، لم يرضى جدي أن يخبرنا بمكانه !

- وما علاقةُ جدّكَ بهذا الأمر ؟!
- هو الذي قتلَ أبي حينَ كنتُ لا أزالُ في بطن أمي .
- ماذا لو كانَ أبوكَ على قيدِ الحياةِ ولم يقتله جدّكَ كما أخبركم ؟!
- يستحيل هذا ، لقد مضى أكثرَ من عشرينَ عاماً ، لا أعتقد بأنَّ أباً في الدنيا يترك عائلتهُ خلفه كلَّ هذهِ المدة، ويمضي بدون أن يظهرَ بطريقةٍ أو بأخرى !
- وماذا إن كانَ مجبراً ؟!
- " بدأت الشكوكُ تقتلني ، صرتُ أدعو الله ألَّا يكونَ شكي في محله ، لذلكَ أردتُ أن أكملَ الحوارَ حتى نهايتهِ لعلَّ ما يساورني من الشكوكِ يكون كاذباً !"

ومن سيجبر رجلاً أن يبتعد عن أسرته عشرينَ عاماً!! إلَّا إن كانَ هو قد اختار ذلكَ بملءِ إرادته !

- وماذا إن لم يكن يدري بأنَّ لديهِ أسرةً تركها خلفه ؟!
- من أنت ؟!
- أنا أبوك يا بلال !

بعضُ المشاعرِ يستحيلُ أن يصفها أحد ، وخاصةً عندما تكون متداخلةً لدرجة أنَّكَ لا تعرفُ ما هي بالتحديد .

هل يستطيعُ أحدٌ إخباري كيفَ سيشعر وأبوه الذي يظنُّهُ ميتاً يجلس أمامهُ بعدَ غيابِ عشرين عاماً !!

أنا شخصياً أكادُ أقسمُ بأنَّ الأرضَ توقفت حينها عن الدوران، وأنَّ الدماءَ وقفت مذعورةً في عروقي ، وقلبي صار يهمسُ في أذن دماغي الذي ثغرَ فمهُ ووقفَ مذهولاً : " قل لي بربكَ ما الذي يجري هنا !! "

- أبي ماتَ منذُ أكثرَ من عشرين عاماً .
- أنا أبوكَ يا بلال وهذهِ هي الحقيقة .
- " صرختُ بأعلى صوتي " لا تكررها أرجوك ، أنتَ لستَ أبي ، أبي قتلهَ جدي !
- هذا ما أرادكَ جدكَ أن تعرفهُ ، أمَّا الحقيقةُ فهي عكس ذلكَ تماماً ، لقد كذبَ جدكَ عليكَ وعلى أمّكَ !

هناكَ جزءٌ مني بدأ يصدقه ، والجزءُ الآخر مازالَ مكابراً!

وحينَ بدأ الجزءُ الأول يعلنُ انتصارهُ رويداً رويداً ، هدأت نارُ غضبي قليلاً ، وأردتُ أن أعرفَ أكثرَ لعلِّ أفهم ماذا يجري حولي !

- ما الذي حصل ليلتها ؟!
- بعدَ أن هربنا أنا و أمك من القرية إلى المدينة ، ذهبنا إلى شيخٍ عقدَ قراننا ، ثم ثبتناهُ فيما بعد في المحكمة ، واستأجرنا بيتاً صغيراً سكنتُ فيهِ مع أمك .
- كلُّ هذا الكلام أعرفه ، قل لي ماذا حدثَ في تلكَ الليلة!
- كانتِ الساعةُ بحدودِ الثالثةِ فجراً ، اهتزَّ باب البيتِ بطرقٍ عنيفٍ سقطت معه قلوبنا أنا و أمك .

لم نكن أغبياء ، كنا نعرفُ بأنَّ جدكَ و أولاده يقفونَ خلفَ الباب ، وأنَّ الموت قادمٌ لا محالة .

حينَ كسروا الباب و دخلوا ، كانت أمُّكَ تختبئ خلفي، حاولتُ أن أحميها من ضربهم ولكن دونَ جدوى ، ضربني أحدهم على رأسي من الخلف فوقعتُ مغشياً عليَّ ولم أستفق إلا واثنانِ من أولادِ جدك يحيطان بي

وأنا مكبلٌ و مرميٌ على الأرض في مكانٍ مظلمٍ لا أدري أينَ هوَ ، ولا أدري ماذا حلَّ بأمِّكَ ، هل قتلوها؟ هل أخذوها معهم إلى القرية ؟ لا أعرفُ شيئاً !!

بعدَ عشراتِ اللكمات أشهرَ أحدهم سكيناً وأراد أن يغسلَ شرفهُ بدمائي كما قال ، ولكنَّ الشاب الآخر الذي معهُ منعهُ بحزمٍ من ذلك ودفعهُ بعيداً عني ، ثم جثى فوق صدري وقال لي :
لقد أمرني أبي أن أقتلكَ وأن أدفنكَ في هذه الأرض ، ولكنني لن ألوِّثَ يدي بدمائكَ القذرة ، لذلكَ ارحل من هذه البلاد ولا تدعني أرى وجهك ، أو أن أسمعَ عنكَ خبراً ، فإني لو سمعتُ بأنَّكَ ما زلتَ هنا ، سأقتلكَ و حينها لا نجاةَ لك !
فكَّ وثاقي و أمرني بالرحيل .
ركضت .. ركضتُ كثيراً .
نعم لقد هربت ، لم أحاول أن أعودَ لأساعدَ أمك لأني كنتُ واثقاً بأنَّ جدكَ إما قتلها أو أنهُ أخذها إلى بيتهِ في القرية . أمضيتُ يومين مختبئاً في بيتِ صديقٍ لي ، ثم سافرتُ إلى البرازيل حيثُ يقيمُ أحدُ أقاربي هناك .

- عشرونَ عاماً لم يخطر لكَ بأن تسألَ عن ولدكَ و زوجتكَ ماذا فعلت بهما الدنيا ! كيفَ يعيشان ! كيفَ يواجهان كل هذه المآسي !!!؟
- لم أكن أعلمُ بأنَّ خديجةَ حاملٌ بك ، لم تخبرني بذلك !

- هكذا تمضي بدونِ أن تسألَ عن الفتاةِ التي هربت من بيت أهلها لأجلك ، وتعرضت للموتِ في سبيلِ الزواجِ منك !!

أيّ رجلٍ أنت !!؟

- لم يكن أمامي حلٌ آخر ، إما أن أمضي وأهربَ خارجَ البلاد ، أو أن أُقتل !
لذلك اخترتُ الهرب .
- هل لديك أيَّ فكرةٍ عن حجم ما عانته أمي في غيابك!؟
- لم يكن لي ذنبٌ فيما حصل !
- ذنبُ من إذاً ؟!
- لا أعلم ! لقد فعلتُ ما بوسعي ولكن حصل ما حصل.
- فعلتَ ما بوسعك !!
تركتَ أمي خلفَ ظهركَ تواجه الموت ، وهربتَ عشرين عاماً لم تلتفت إلى الخلف ، لم تحاول حتى أن تعرف ماذا جرى لها ، وتقولُ لي فعلت ما بوسعك !!
- قلتُ لكَ لم أكن أعرف ماذا حصل مع أمِّكَ ، كنتُ أظنُّ بأنَّ جدكَ قتلها أو أعادها إلى بيته .
لذلكَ بعد أن هاجرت إلى البرازيل بعامٍ واحد ، تزوجت وعزمتُ أن أبقى هناك حتى تبرد نارُ جدك .
- تزوجت هناك ؟!

- نعم لقد تزوجت ، ولديَّ ثلاثةُ أولاد .
- ولماذا عدتَ إذاً ؟!
- أرسلتني الشركة التي أعمل لديها لأنهي صفقةً تجاريةً هنا ، فعدتُ إلى القرية لأزور أبي و أمي ، وهناك أخبروني بأنَّ خديجةَ لم تمت وأنها أنجبتكَ ، وأنَّكَ لم تزرهم أبداً !
- أتظنني أدخلُ بيتاً طُردت منهُ أمي حين احتاجت أهله؟!
- لقد مضى ما مضى ، وهم بالنهاية بيتُ جدِكَ .
- لم يكونوا كذلكَ حينَ كنتُ صغيراً ، ولن يكونوا كذلك بعد أن كبرت !
- ولكنهم أهلُ أبيك !
- أبي قتلَ منذ عشرينَ عاماً !

- أنا لم أُقتل يا بلال ، ها أنا أجلسُ أمامك حيٌ أرزق !
- لقد قتلتَ في نظري حينَ تركتني و أمي نصارعُ الجوع والفقر والحاجة !

قُتلتَ في نظري في كلِّ ليلةٍ نمتُ و أمي جائعين لا خبزَ في بيتنا ولا طعام !

قُتلتَ في كلِّ يومٍ كانت تعملُ فيه أمي في خدمة الآخرين !

- ولكنني جئتُ لأعوضكَ عمّا مضى !
- ومن يعوض ساعاتِ البكاء التي أدمت عيون أمي ! وساعات الذلِّ الذي عاشتهُ وهي تستجدي بابَ جدي في بعضٍ من المال تشتري فيه لوازمي المدرسية !
- لقد مضى ما مضى ونحنُ أبناء اليوم !
- لم يمضِ شيء ، ثمَّ إننا لسنا أبناء اليوم ، نحنُ أبناء أيامِ الجوع و الذل و الإهانة التي عشتها و أمي هنا في الوقت الذي كنتَ فيهِ أنتَ مرفَّهاً في البرازيل !
- لقد عانيتُ أكثرَ منكم في البرازيل حتى وصلتُ إلى ما أنا عليه !
- ذلكَ شأنكَ وحدك ، أنتَ من تركتَ أمي خلفكَ بين أنياب الجوع و الذل !
- أرجوكَ يا بلال ، دعكَ من حديث العاطفة الآن ودعنا نتحدث بعقل .
- لقدُ كنتُ أحدثكَ بالعقل ، ولو كنتُ أحدثكَ بالعاطفةِ لما رضيت أن يدخلَ بيتي رجلٌ غدرَ بأمي و خانَ ثقتها.
- رجل !! أنا أبوكَ يا بلال !

- قلتُ لكَ بأنَّ أبي قُتلَ منذ عشرين عاماً .. والآن ماذا تريد ؟
- أريدكَ أن تذهب لتسكنَ في بيت أبي " جدك " فهم بانتظاركَ هناك ، فأنا لا أستطيع أن آخذكَ معي إلى البرازيل لأنَّ زوجتي لا تعلم بأنَّ لي ولدٌ هنا ، ولو علمت بذلك ستكونُ كارثةً حقيقيةً عليَّ ، وسأمدكَ بالمال الذي يكفي لتكملَ دراستك .
- أخرج من بيتي .
- ماذا ؟!
- قلتُ لكَ اخرج من بيتي ، لا حاجةَ لي بمالكَ بعد أن ماتت أمي وهي تظنُّكَ قد قتلتَ قبلها .
أضاعت أمي حياتها و هي تحبُّكَ وتظنُّكَ قد ضحيتَ بحياتكَ في سبيل الزواج منها !
- دعنا نتفاهم يا بلال ، أنتَ ولدي ولن أتخلى عنك !
- قلتُ لكَ بأنَّ أبي قد مات ، اذهب إلى أسرتك ومالك وبلدك ، اخرج أرجوك !
- حسناً ، طالما أنتَ تريدُ ذلكَ فلا بأس ، لكنني سأعودُ للحديثِ معكَ في وقتٍ لاحق .

أغلقتُ الباب خلفه و عدتُ إلى صورة أمي ، وضعتها في حضني وبكيت ..بكيتُ كثيراً .

مؤلمٌ جداً أن تنهارَ صورة إنسانٍ كنتَ تحبه فجأةً ، لم يكن أيُّ إنسان ، كان أبي !!

ما ضرَّهُ لو عادَ قبلَ أن تموتَ أمي !

حين كنا نصارعُ الحياة فتصرعنا المرةَ تلوَ الأخرى !

حينَ أبكانا الجوع وأدمى قلوبنا الأسى !

ما ضرَّهُ لو عادَ قبلَ أن تطحننا الأيام ! قبلَ أن يخطفَ الموت زهرةَ حياة أمي !

كم أتحسَّرُ على تلكَ الأيام التي بكت فيها أمي لأنها لا تعلمُ قبراً لأبي تزوره و تبثُّه شكواها !

الآن عاد !! وكيف عاد !!

عادَ متزوجاً يخافُ أن تدري زوجته بابنهِ الذي طحنتهُ الحياةُ وكسَّر القدرُ عظامه !

على أيِّ حال ..

لم تكن الصدمة الاخيرةُ يا شمس ..ما زال في الحزن بقية، ومازالَ في القلبِ متسعٌ لجرحٍ آخر !

لم أستطع أن أذهبَ إلى فحصِ التشريح بسبب ما عانيته في الليلة الفائتة ، أظنُّ بأنها كانت أكثر ليلةٍ بكيت فيها !!

بكيتُ كثيراً .. بكيتُ عن العمرِ كله !

بكيتُ بالنيابةِ عن أمي وعن كل المقهورين في هذه الارض!

طُرقَ البابُ مجدداً ، ولكن هذهِ المرَّة في الواحدةِ ظهراً .

استيقظتُ على صوتِ الطرقِ ورأسي يكادُ ينقسمُ نصفين من الالم ، حينَ فتحتُ الباب كان أحد أولاد جدي يقفُ هناك، و بعدَ أن ألقى السلام قالَ بكلِّ حقد .

- لقد سمعنا بأنَّ والدكَ قد عاد ، وأنَّهُ زاركَ هنا في هذا البيت ، ولذلك فإنَّ أبي " جدَّك " يمهلكَ ثلاثة أيامٍ حتى تغادر المنزل ، فنحن إن أبقيناكَ في المنزل ، إنما أبقيناكَ كرامةً لروحِ أمك ، أما وقد عاد أبوكَ فيجب عليك أن تترك البيت .

قالَ هذا الكلام بكلِّ بساطةٍ ورحل !

هل تعلمين يا شمس ما معنى أن أتركَ المنزل ؟!

هذا يعني أن أتركَ البيت الذي آواني أنا و أمي ، البيت الذي أمضيتُ فيهِ طفولتي و شبابي .

البيت الذي أملكُ في كلِّ زاويةٍ فيه ذكرى !

وإن تجاوزتُ كلَّ هذه المشاعر ، فالسؤال الأهم : إلى أينَ سأذهب ؟! وكلُّ ما أملكه من المال لا يكاد يكفي ثمنَ طعامٍ لأسبوعٍ واحد !

لقد أصبحَ الأمرُ أصعب من أن أحتمله لوحدي ، لقد تعبت .. تعبتُ جداً !.

هاتِ عنكَ الحديثَ الآنَ يا بلال ، فهذا آخرُ سطرٍ كتبتهُ أنتَ في مذكراتك ، والميتُ لا يستطيعُ أن يكتب حرفاً !

و ها أنا الآن بجوارِ قبركَ أتمُّ ما بدأته أنت .

أتذكرُ حينَ قلتَ لي بأننا حين نتزوج ، سنأتي لنزورَ قبرَ أمِّكَ معاً ، وسنجلسُ بجوارِ قبرها نقرأ لها المذكراتِ سوياً!

ها أنا اليوم أوفي بوعدكَ ، ولكن لوحدي !

أجلسُ بينَ قبركَ و قبرَ أمِّكَ ، أقرأ لها مذكراتك ، وإن كنتُ أعلمُ بأنَّكَ الآنَ قد أخبرتها بها وجهاً لوجه ..

أو ربما روحاً لروح !

أتعلمُ ما هو أصعبُ ما في الأمر يا بلال ؟!

أنني أجدُ نفسي مجبرةً على إنهاء مذكراتكَ بحديثِ موتك وإن كانَ ذلكَ لأصعبُ عليَّ من زوال روحي !!

فتعال الآن نوثّق ما حدث ، ثم أعودُ لأبكيكَ ما طال بي العمر !.

حينَ غبتَ عن فحص التشريح ، كانَ الأمرُ صادماً و مخيفاً بالنسبة لي ، فلقد أنهينا دراسةِ المادةِ سوياً ، وتعاهدنا أن نبذلَ أقصى جهدنا لنحصلَ على علامةٍ عاليةٍ في تلكَ المادة.

ولأنني لا أملكُ وسيلةً للتواصل معك ، فلم أجد أمامي سوى الصبر .

مرَّ نهارُ الاثنين بطيئاً ، لم أستطع أن أدرسَ حرفاً واحداً لمادة يوم الثلاثاء بسببِ تفكيري المستمر بك ، ومخاوفي التي تجتاحني و ترعبني !

ثمَّ أتى يوم الثلاثاء المشؤوم ، انتظرتكَ طويلاً أمامَ الكلية قبلَ أن أدخلَ الامتحان ، ولما أيقنتُ بأنَّكَ لن تأتي ، دخلت. لم أستطع أيضاً أن أكتبَ حرفاً ، شيءٌ ما يكبلني !

شعورٌ غريبٌ يقولُ لي بأنَّ شيئاً ما قد حدث !

صدقَ شعوري ، ولكن التوقيت كان خطأ ، فالأمرُ الجللُ لم يكن قد حدثَ بعد .

حينَ خرجتُ من الامتحان ، وجدتكَ تنتظرني خارجاً تحملُ على كتفكَ حقيبةً كبيرةً ، ركضتُ باتجاهكَ كالطفلِ الضائعِ الذي وجدَ أمَّهُ أمامهُ فجأةً .

بكيتُ حتى قبلَ أن تقول لي ما بك ، كنتُ أشعرُ بحزنكَ حتى قبلَ أن تنطقه !

لم أسألكَ لماذا لم تحضر الامتحان ، لأنني كنتُ أعلمُ بأنكَ ما كنتَ لتغيب إلا و أمرٌ جللٌ قد حدث .

لذلكَ سألتكَ فوراً ما الذي حدث ؟!

قلتَ بأنكَ لا تريدُ أن تتحدث في الجامعة ، وطلبتَ أن نمضي إلى شارعنا الذي اعتدنا أن نسيرَ فيهِ معاً ، حتى حفظنا الياسمين المعلقُ على أسوار أرصفته .

و قبلَ أن نخرجَ من الباب سمعتُ صوتَ صديقتي أمل يناديني ، فطلبتُ منكَ أن تنتظرني و عدتُ إليها .

ولكنكَ لم تفعل ، أردتَ أن تقطعَ الشارعَ وحدك !

كانت أفكاركَ مضطربةً إلى الحدِّ الذي أعمى رؤيتك ، فأبصرَ الموتُ طريقهُ إليك !

سيارةٌ مسرعةٌ خطفتكَ مني ، ليتها خطفتني معك !!

حاولَ الأطباء إنقاذك ، ولكنَ يد الموت كانت أقربُ إليكَ من أيديهم !

أغمضتُ عينيكَ بيدي ، يدي التي لم تمسَّ يدكَ أبداً ، برغم أن قلبينا كانا يتعانقانِ في كلِّ لقاء !

كنا قد أقسمنا أن نحفظَ للحبِ نقاءه ، فاعذرني لأنني أصررتُ على إغماضِ عينيكَ بيدي !

ربما لأنني أردتُ أن أكونَ آخرَ شخصٍ تراهُ في هذه الدنيا، ربما كانت تلكَ أنانيةً مني ، ولكنني أعرفكَ جيداً يا بلال !

لم تكن تحب أحداً في هذه الدنيا بقدرِ ما أحببتني ، ويشهدُ الله بأني كذلك !

فارقتني بدون أن يتسنى لي أن أودعك ، بدون أن أرى ابتسامتك التي تتغلب دائماً على مصاعب الحياةِ التي لم تكن تفارقك !.

حين فتحتُ حقيبتكَ ، كانَ دفترُ مذكراتكَ أول ما رأيته ، شعرت بأنه يقول لي : خذيني إليكِ أكملي ما عجزَ صاحبي أن يكمله !

وها أنا الآن أكملتُ حديثَ الذكريات ، فدعنا مما كتبناه و تعالَ أبكيكَ الآن !.

كيفَ طابَ لكَ أن تتركني وحيدةً أصارعُ الذكريات ، فأغلبها وتغلبني ، ثم أحتضنها وأبكي ، حيثُ لم يبقى لي منكَ سواها.

لو كنتُ أجيدُ الشعرَ ، لغلبتُ الخنساء في رثائها لصخر .

ولكنني لا أجيدُ إلا الدموع ، ولقد هيئتُ منها ما يكفي لأبكيكَ العمرَ بأكمله !.

قلةٌ من يستحقون منا أن نضعَ عمرنا رهينةً في أيديهم ، وها أنا الآن أضعُ عمري رهينةً عند قبرك !

حضِّر لي مكاناً بقربكَ يا بلال ، فلا أظنني سأقوى على الاستمرار في الحياة بعدك !

لن أقولُ لكَ وداعاً ..

بل إلى اللقاء القريب بإذن الله .

سقطت ورقةٌ خريفيةٌ من عمر
الكاتبِ ، وحينَ التقت بالأرضِ
أرادت أن تعرِّفَ بالكاتبِ فقالت :
شابٌ يتجولُ بينَ أزهارِ ربيعهِ
الثالثِ والعشرين ، يقطفُ زهرةً
من الطبِّ يزينُ بها هامتهُ ، وأخرى
في الأدبِ يعيدُ بها ترتيبَ نبضاتِ
قلبه ، بصرهُ معلقٌ على أحلامهِ
المتشابكةِ مع النجوم ، يراوده
الفخرُ لانتمائهِ إلى
" الدفعة 51 في كليةِ الطبِّ
البشري ـ جامعة حلب " .